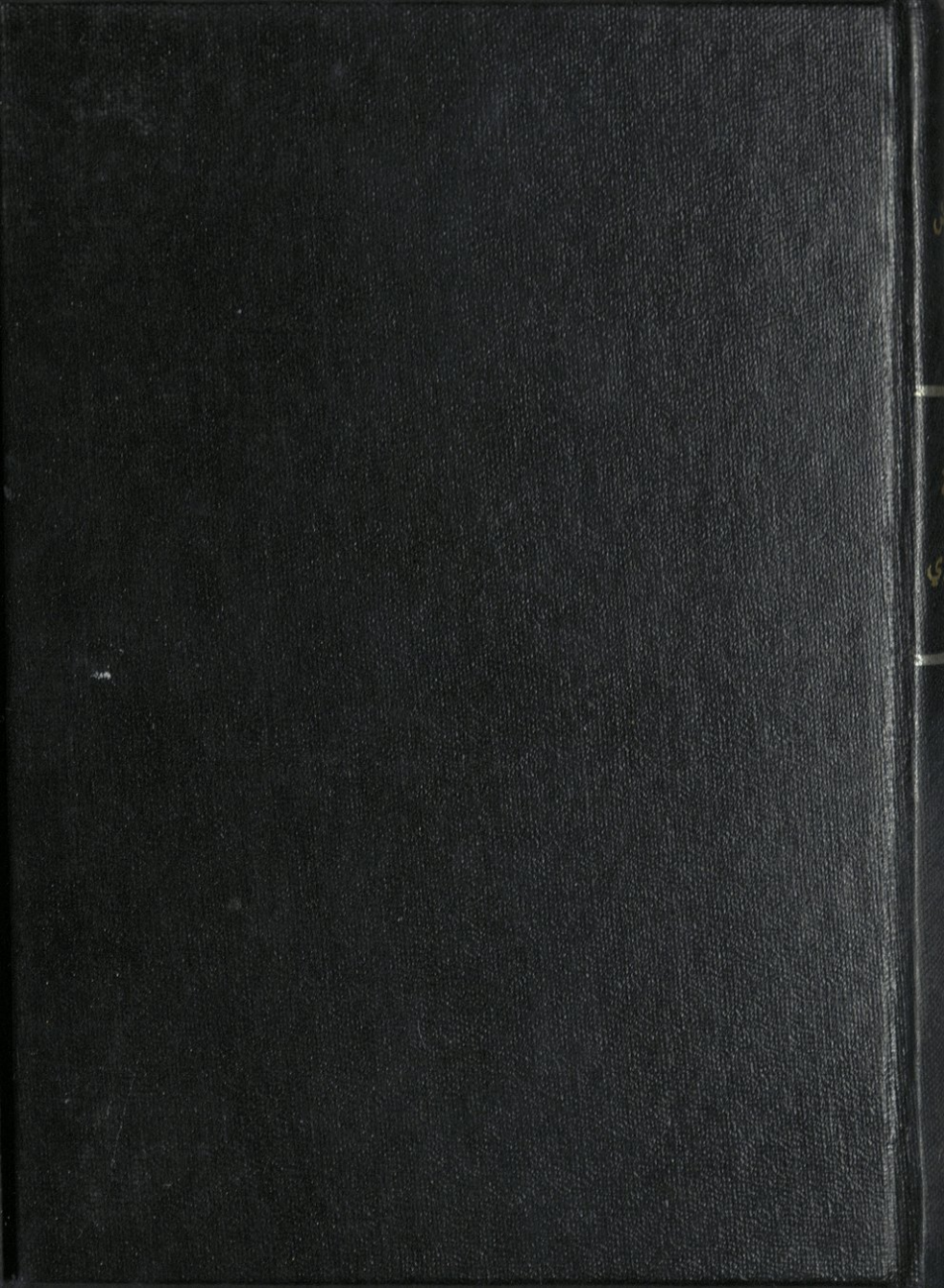
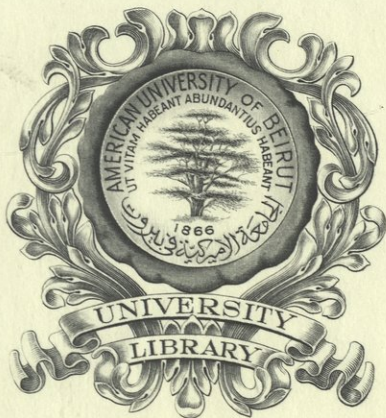
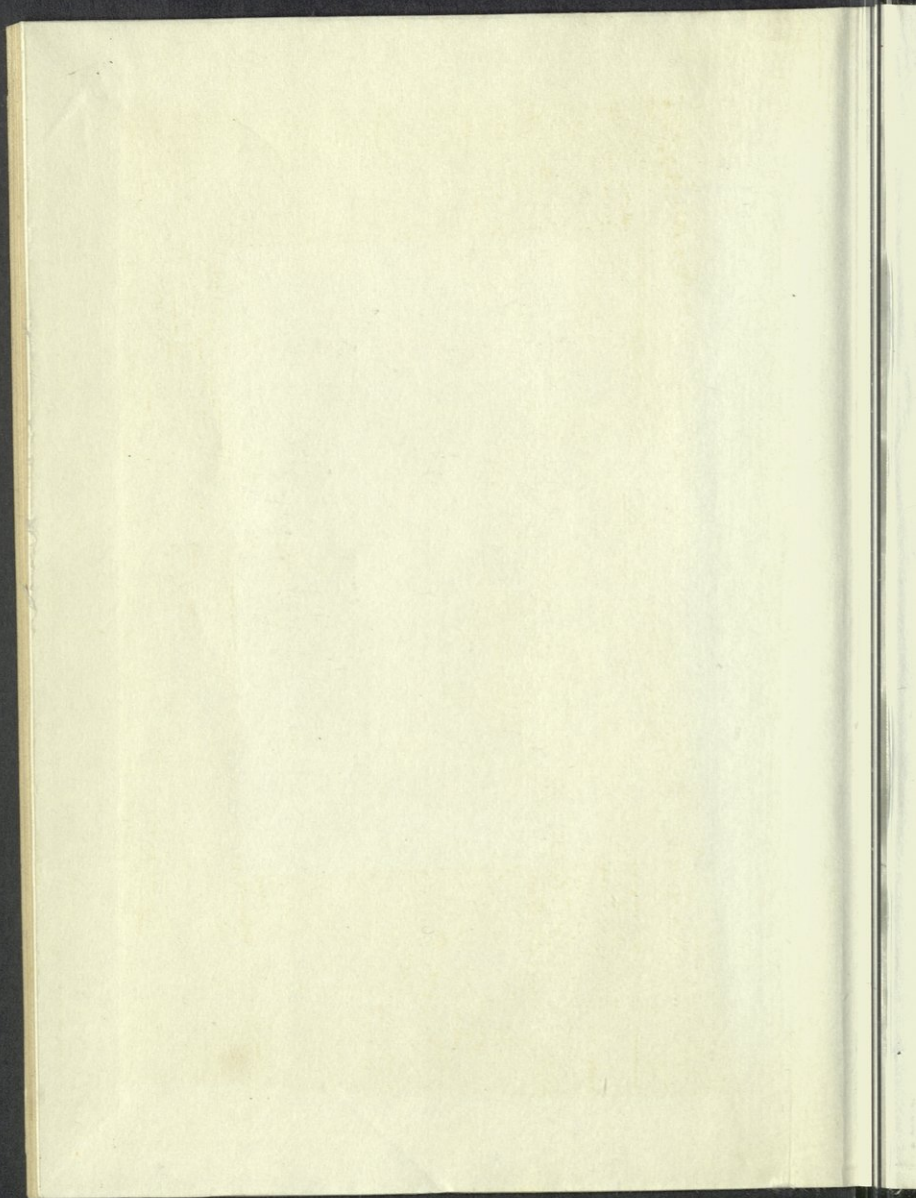
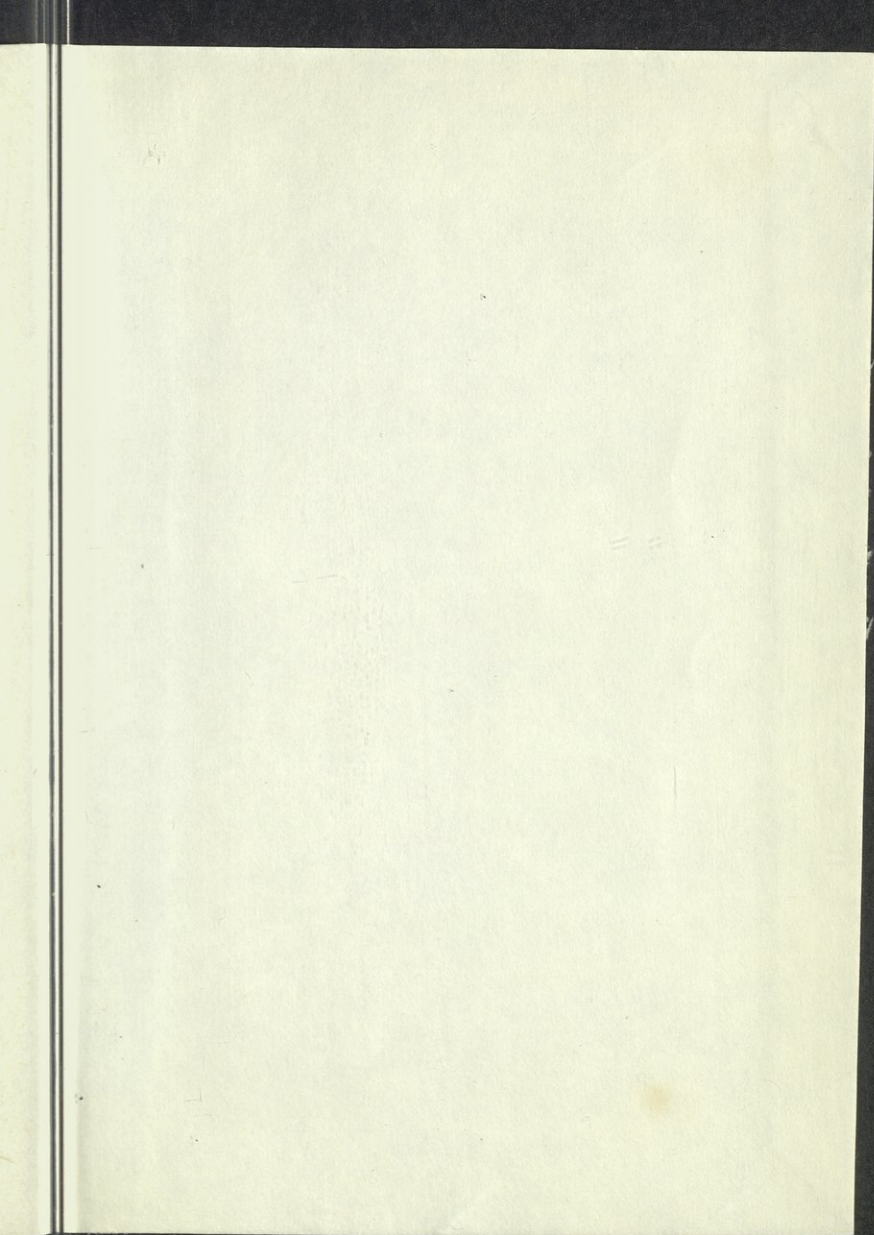


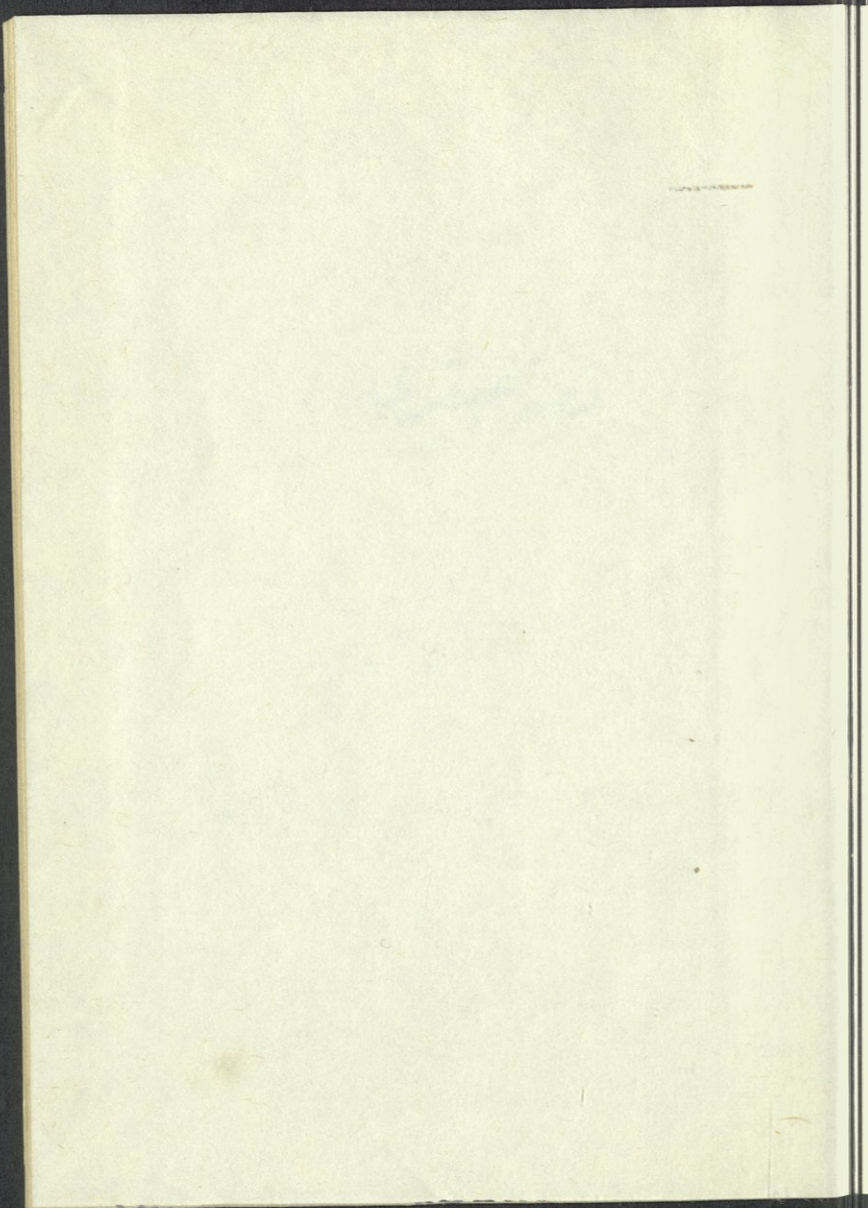


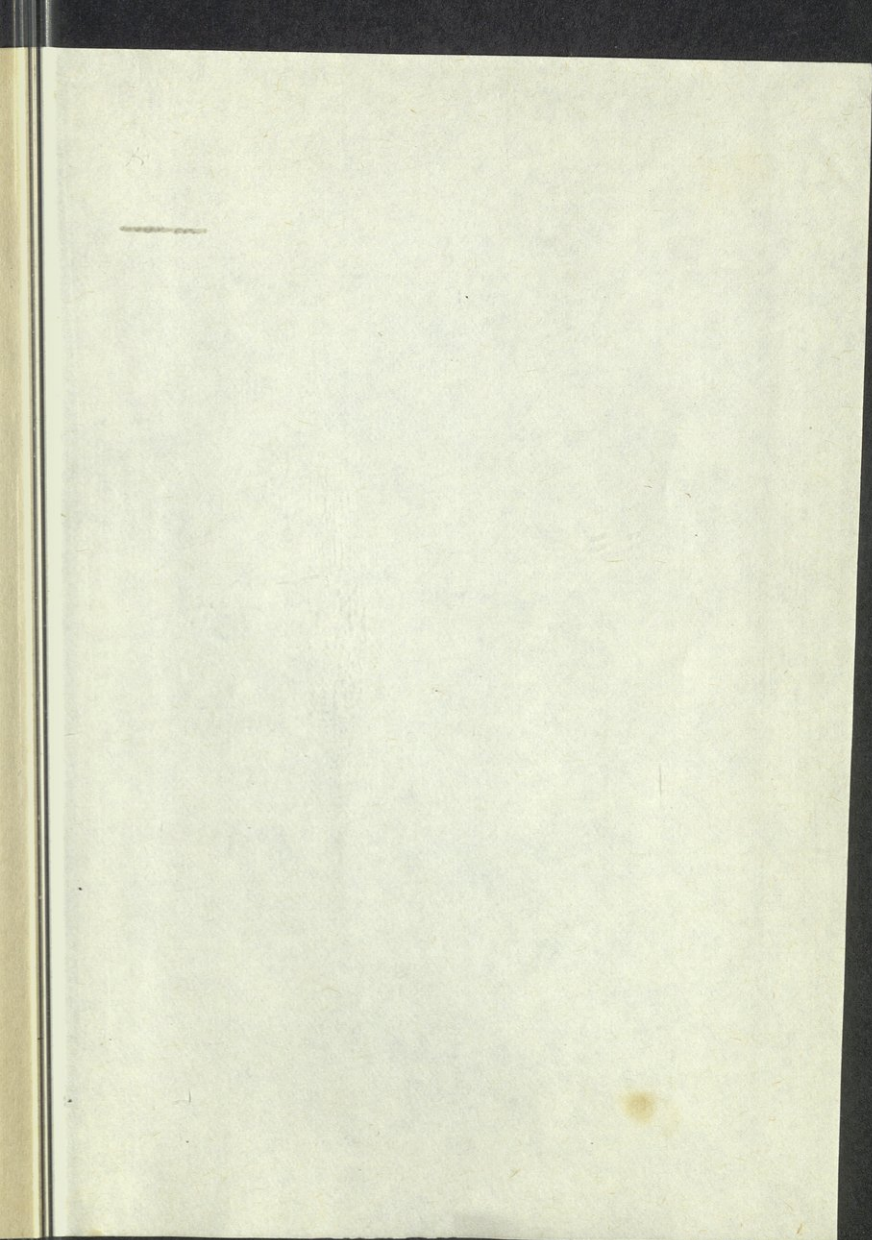
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT











قصه عبقری

۵۶۵
کتابخانه

مكتبة



892.73
7L55KA

يوسف القس

492.7
F211asA
c.1

قصه عبقري

67047

اقرا
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
٤٢

اقرأ ٤٢ — مايو ١٩٤٦



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(اجتمع أدباء من كل أفق بمكة فجعل أهل كل بلد يرفعون
علماءهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي
فلم يبق أحد إلا قال الخليل أذكى العرب).
(أبو أحمد التوزي)

وهاك قصة الخليل بجمال نفسه وحسن خلقه
وقوة عبقريته. وليس المؤلف فيها بعد الاختيار
والحبك إلا تفصيل الحوادث
والشعور بعظمة الرجل

الفصل الأول

انطلق الصبية يلعبون في أزقة البصرة عام ١١٢ للهجرة ،
يتراكضون ويتسابقون ، يجتمعون ويفترقون ، وفيما هم في لعبهم
ضاحكون ، إذا أحدهم يصرخ مشيراً إلى رجل أقبل من بعيد ،
وهو على بغلته ، يكاد لا يظهر عليها لقصره ، فاجتمع الصبية
متمار بين ، وأخذوا يتأملون فيه ساخرين ، وهو يتقدم نحوهم .
قال أكبرهم : أنظروا إلى شاعر البصرة ، وحامى لواء قبيلة بني
تميم ، أنظروا إلى الفرزدق ، وقولوا : هل رأيتم أقبح من هيئته
وأقصر من قامته ؟ فضحك الصبيان ، وتقدم الفرزدق حتى وازاهم
وقد شمخ بأنفه ، ونفخ شدقيه ، وبسط ساقيه ليعلو جسمه على
ظهر البغلة ، فيخفي شيئاً من قصره ، فما زاده هذا الوضع إلا غرابة
وقوى عجب الصبية ، واشتد اهتمامهم ، وكثر تهامسهم ، أما هو
فساءه نظرهم وعبس في وجوههم عليهم يرتدون عنه ، ويخشون
نظراته ، ولكنهم أبوا الانهزام أمام تلك النظرات ، وسرهم

عبوسه ، وقصدوا الكيد به ، كما اعتادوا أن يكيدوا لبعض المارة .
 وشعر هو بذلك ، فخشى أن يصبح سخرية لهم ، ورفع عصاه التي
 يهزم بها بغلته ، ولوح بها أمامهم ، وقال بصوت أجش ثقیل :
 نظروا إليكم بأعين محجرة

نظر التيوس إلى مدى القصاب
 قال ذلك ، وردده مرتين رافعاً صوته عند كلمة المدى ، وكأنه
 كان يقول : إنكم تيوس تنظرون إلى بأعين محجرة خائفين من
 هذه العصا التي هي المدينة حضرتها للبطش بكم ، ثم يردد قوله :
 نظروا إليكم بأعين محجرة

نظر التيوس إلى مدى القصاب
 وكان إنشاده الشعر بصوت قوى . يخرج من الحنجرة متثاقلاً
 وتهديده بعصاه ، وكان قد عاد من الحرب التي شنتها المهالبة ،
 كان كل ذلك يوحى الشدة والخوف ، فترجع الصبية وجلين ،
 وقد أخافتهن كلمة المدى وتلويح العصاة أكثر مما استثارهم تشبيهه
 لهم بالتيوس . تراجعوا إلا واحداً منهم ، أشار إليه الصبية يقولون :
 ها هو ذا الخليل يقصد أمراً مهيباً . قالوا ذلك ، ووقفوا ليروا ماذا
 يجري ، وقالوهم مضطربة . أما الخليل فتقدم قليلاً إلى الفرزدق

بقدم ثابتة ونفس مطمئنة ، وقال : هل أغضبك نظرنا إليك
 وتأمّلنا فيك ، فرحت تهديدنا وتشتّمنا . إنا نظرنا إليك لأنك
مليح كما ينظر إلى القرد لأنه مليح . قال الخليل هذا الكلام
 رافعاً رأسه غير هيب ولا وجل . وما سمع الصبية كلامه حتى
 صاحوا مهللين ضاحكين . ولم يكن الفرزدق يتوقع ذلك ، فاتقد
 غيظاً ، وكاد ينزل عن بغلته لينهاه على هذا الصبي المتمرد الشجاع
 ضرباً بعصاه . ولكنه تذكّر جريراً — لحى الله جريراً — إنه
 إذا بلغه أن صبيّاً من صبيان البصرة هزىء بشاعر بني تميم ،
 فوصفه بالملاحاة أولاً ثم شبهه بالقرد ثانياً ، إنه حري بأن يتخذ
 من هذا موضوع تهكم لاذع . ثم إذا علم جرير — ويح لجرير —
 أن هذا التشبيه ساءه ، فاعتدى على قائله ، ألا يجعل منه قرداً
 يتهارش مع الصبيان ؟ ذكر الفرزدق كل ذلك ، فأحجم عن
 النزول ، وتمسك بزمام البغلة ، وأشار إليها بأن تجدد السير . وما
 كاد ينطلق حتى اجتمع الصبية حول الخليل يهللون معجبين
 بذكائه وإقدامه .

الفصل الثاني

مر الزمن وإذا الصبي الذكي الشجاع يصبح شاباً . وإذا هو يخرج من غرفته ، وهو يخفى في طيات ثيابه خنجره ، فتضطرب والدته ، وقد رآته يفعل ذلك ، وتقول : ما بالك يا خليل ، إلى أى أمر مهم تخرج يا بنى ؟ إني خائفة عليك من أصحابك ، وأراهم يدفعونك إلى ما لا تحمد عقباه . فبالله عليك دعهم وشأنهم ، فإنك لم تخلق لما يدعونك إليه . أما رأيت أباً على يتنمأ لك بالعلم الجميل ، ويصفك بحدة الذكاء وقوة القريحة . للعلم خلقت يا بنى لا لشيء آخر ، ألا فاعطف على قلب والدته وضعت فيك أملها ، وأحببتك أكثر ما تحب الأم ابنها . فنظر الخليل إلى والدته نظر العطف والمحبة ، وقال : أنا ابنك المطيع يا أماه ، ولكن أترك نسيت شجاعة بنى أزد وقوة مراس الفراهيد ؛ أأست حفيد تلك القبيلة وابن هذه العشيرة ؟ أو تنجبان الجبناء ، ثم أنى لا أفعل إلا ما يقتضيه فرض الدين على ، فقرى عينا ولا تحزنى . قال

الشاب ذلك وانطلق يعدو ، وهو يخترق شوارع البصرة لا يلوى
على شيء ، وكأنه ذاهب إلى موعد مع حبيب . ويخرج من
البلدة ، فيعطف في منعرجات خفية وشعاب وعيرة تفضي به إلى
ما وراء أكمة ، فيجد شيخاً وسيماً قد أحذقت به حلقة من شبان
أشداء ، ينظرون إليه بإيمان ، ويشير الشيخ إلى الخليل : أن
اجلس ، فيقعد القرفصاء ، ويصغى بكليته إلى الشيخ ، وإذا
بهذا يقول : لقد كفر بنو أمية وضلوا سواء السبيل ، فلا أمر
بالمعروف ، ولا نهى عن المنكر ، ولا اعتصام بمحدود الله . يعلمون
الناس النفاق ، ويدعون إلى المعصية ، فجزأهم وتابعيهم القتل ،
وساء سبيلاً . يجتمع إخواننا من الخوارج من كل صقع ليدافعوا
عن دين الله ، ويذبوا عن حماه . وسيكمنون لجيش الخليفة الآتي
من الشام ، فيبادرونه بالسيف ، ويقتلون أمة الباطل وأعداء الله
فهل أنتم على استعداد ؟ فيصيح الحاضرون بصوت واحد : نحن
شراة فإلى الجهاد . فيقول الشيخ ستغادرون البصرة صباح الغد
إلى حيث تجتمعون بالإخوان ، والأمر فيكم لأبي نعيم ، ولا تنسوا
رأى الخليل ، فهو حكيمكم ، وإليه مشورتكم . وسأرسل إليكم
النجدة ممن استثيره من أصحابنا الإباضيين .

خروج
الخليل

يا حسنة

وينفض المجلس على أن يخرجوا صباح الغد ، وينطلق الخليل
إلى الجامع ليودع حلقات العلم فيه ، فهي التي سيفقدها من البصرة
وسيجن إليها ، فما أحرأه بأن يتزود منها قبل خروجه . ويجوب
تلك الحلقات ، فتحتهذه حلقة لشيخ كبير ، هو أيوب السختماني
وكان يمر بها فلا يقربها ، لأن أصحابه كانوا يتقونها عملاً بنصيحة
شيوخهم . فقد كان هؤلاء يدعون أن المتصدر بها يدع الحق
للباطل . ويتوق الخليل إلى سماع شيخ السنة هذا الذي اشتهر
بالعلم وترأى به نفسه أن يخرج من البصرة إلى غزوة لا يعرف أياها
ينتهي دون أن يستمع إلى شيخ تفرد بالمعرفة واشتهر بالعلم .
يقف على تلك الحلقة ، فيسمع كلاماً ما سمع أظف منه ، فتؤخذ
نفسه به ، وينظر إلى الشيخ ، فيراه يتفرس في وجهه وهو يتكلم ،
فيطرق رأسه ، ويجلس بين الناس ليتجنب تلك النظرات ،
فيسمع الشيخ يقول : حدثونا عن البراء بن عازب أن رسول الله
قال : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ، ولو
أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتروا في دم مؤمن لأدخلهم
الله النار .

كذا يقول رسول الله ، وأين هذا مما يدعيه بعض أهل

غير مستحب
أيوب السختماني
المؤثر في السنة

الأهواء من وجوب قتل كل من لا ينضم إلى حزبهم، ويقول بمذهبهم يدعون أن من سواهم كافرون، فكأنهم لم يسمعوأ حديث رسول الله حيث قال: ما أ كفر رجل رجلاً إلا باء أحدهما بها إن كان كافراً، وإلا كفر بتفكيره.

ووفق الشيخ يورد من ذلك أقوالاً كانت نفس الخليل تضرب لها، ومما قال عن عبد الله بن مسعود، قال قال النبي (ص): لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان. وزنى بغير إحسان. وقتل نفس بغير نفس. قال الشيخ ذلك وكأنه قصد إسماع الخليل. ثم أضاف قائلاً: رأيتم أيها الناس مسلماً يقتل مسلماً، والروم متحفزون للقضاء علينا جميعاً، ألا ببس تشقت المسلمين وتصادمهم، ألا من ادعى حب الإسلام. فليخرج إلى قتال من يحاول طرد المسلمين من بلادهم لا إلى قتال من نصبوا أنفسهم للدفاع عنها.

وتنفذ الحلقة، فيقوم الخليل، وهو يقول في نفسه: والله لقد صدق الشيخ، وما يعلم أحد خطأ معامه حتى يجالس غيره، كيف يقتل المسلم المسلم إذا أخطأ برأيه، وكيف يقوم أمر المسلمين إذا وجب عليهم الخروج على صاحب الأمر فيهم، كما ظهر لهم

صالح
الشيخ

منه هفوة أو بدت لهم منه خطيئة . وما أرى أصحابنا إلا استهوتهم
 شجاعتهم ، واستحكمت منهم صلابة رأيهم ، فقعدها المخطئين
 كل مقعد ، يريدون تقتيلهم وإرجاعهم إلى الحق وهم لما يعيدوا
 إليه إنساناً ، يقتلون فيقتلون إلى ما شاء الله . ولا يزال المسلمون
 في نقصان إلى أن ينقضي أمرهم ، ألا بأس الرأي ما ارتآه أصحابي .
 وتصور نفسه وهو يذبح أخاه مسلماً من الوريد إلى الوريد
 فاقشع بدهنه هولاً ، وعاد إلى البيت مكفهر الوجه ، واستقبلته
 أمه فوجدته على غير ما تركته ، فهاها الأمر وصارت تستفهم
 منه حتى حدثها بما يجول في خلده ، فقوت عزمه على عدم الخروج
 فقال لها : لن أخرج لقتال جيش الخليفة . وما كاد ينهي جملته
 هذه حتى صفقت فرحاً ولكنه قطع بهجتها بقوله : أعدى لي
 عدتي فسأذهب إلى بلاد الروم مجاهداً . وذهب منذ اليوم الثاني
 إلى الثغور للدفاع عن الإسلام .

٥٧٨
✓

الفصل الثالث

عاد بعد زمن موقفاً مظفراً ، وكان همه بعد عودته أن يستزيد من علم أيوب ، وأن يتفقه بمعرفته ورأيه ، فوجد أستاذاً يعرف حق الطالب الجد ، ويقدر للموهوب ذكاهه ؛ وإذا بالخليل يصبح أخص تلامذته وأقربهم إليه . ولا يمضي القليل من الزمن حتى يعلم الخليل من السنة والحديث أكثر مما يعرفه كل أصحاب الشيخ .

لقد سمعته
أيوب

كان الخليل يسمع من شيخه مديحاً كثيراً . ويلقى منه محبة خالصة ، لكن ذلك كان يزيده تواضعاً واحتراماً . كان شأن الخليل شأن معظم العلماء النابغين ، يصرفهم نبوغهم عن الاكتراث بالشهرة وعن الاحتفال الشديد بالنفس ، بل كان محتقراً لنفسه ، لا يقدرها حق قدرها ، يظن فيها سوء ، ويحملها المتاعب .

وكان كثيراً ما يقف على حلقة أصحاب العربية والنحو ،

فيرى الجدل محتمداً بينهم والاختلاف قائماً ، ويستهو به علمهم
الذى يطلق المجال للفكر ، ويحسن للريجة النظر ، فينوى
الانتماء إليهم ، فيجلس معهم سنة ، وهو يسمع ولا يتكلم .
وكيف يتكلم بما لا يعرف ، وكيف يجادل فى أمر لا بد أن
ينقطع فيه . كان يهيب العلم ، ويخشى الزلل فيه . ولما كانت
السنة الثانية من انتمائه إلى حلقة العربية صار ينظر فى المسائل ،
ويتأمل صعوبتها ، ويفكر بحلها ، ولكنه ما زال صامتاً لا يتكلم
مع أن غيره كان يكثر من القول ويتبسط فى السؤال .

انقضت السنة الثانية ، والخليل لا يثق بعلمه فى النحو ،
ولا يقدم على السؤال . فلما كانت السنة الثالثة صار يتدبر العلم
الذى يتلقاه وقد انبسط له منهاجه ، واتسع فيه أفق تفكيره ،
ولكنه ما برح يربأ بنفسه عن الاشتراك فى الجدل والمناظرة ،
يهابهما ويعظم شأنهما . وكان يذاكر رفاقه بعلمه خارج
الدرس ، فيلقون منه حذاقاً ومعرفة ، ويتنبأ النباء منهم له بنجاح
عظيم . أما غير النباء فلا يرون فيه إلا مستمعاً ناصتاً ، وطالباً
هادئاً ، وذكاء متوسطاً .

وتنقضى السنة الثالثة ، وتحل الرابعة ، فإذا الصمت ينكشف

عن علم خزن تحته ، ورأى كنز فيه ، وإذا بالخليل يسأل الأستاذ
سؤالاً يدهشه به ، فيجيبه عنه ، وهو ينظر إليه معجباً . وتتوالى
الأسئلة من الطالب النجيب ، ويكثر كلامه ، فيلتفت الرفاق
إليه ، يكبرون علماً قوياً ، ونظراً عميقاً يبدوان من شاب في
مقتبل العمر ، لم تكن دلائل النجابة تبدو عليه ظاهرة فياضة .
كان يغوص بسؤالاته في أصول النحو ، وكأنه يريد تقرير
قواعد جديدة فيه ، لما يكتشفها أصحاب العربية .

ويقضى السنة الرابعة ، وهذا شأنه يسأل ويستفهم ، ويجوب
آفاق النحو ، ويبعث المسائل فيها ، والأستاذ يزداد تعجباً منه
وحباً به ، والطلاب يقبلون عليه للاستفادة منه ، والاستقاء من
ينبوع علمه ، حتى إذا انقضت تلك السنة صاروا يشيرون
إليه بالأصابع .

النسك
نظمه
ديباج بنور

الفصل الرابع

✓ أقبل رفيقه أبو المعلى إليه يوماً وقال : يا خليل ! لعلك لم تقدر الشاؤ الذي أدركته في علم العربية والغاية التي ستدركها منه . لقد فقت شيخنا وتعديته ، وصار من حقاك أن تتراأس حلقة في الجامع ، فتفيد الناس من علمك ، وليس شيء أصح لذلك من أن تناظر شيخاً فتفحمه وتظهر عليه ، فيعرف الناس فضلك ، ويسير ذكرك ، ويلتئم محبوب المعرفة حولك ، وإني أدري أنه قبيح بك أن تناظر أستاذك الذي به تخرجت ، أما أن تقوى على شيخ آخر فحق من حقوقك . وهذا أبو عمرو بن العلاء شيخ العربية — الذي قضى خمسين سنة يدرسها — يقيم درساً للنحو في الغد ، يجتمع إليه فيه الشيوخ والطلاب ! فما عليك إلا أن تضع له أسئلة تنتهي منها إلى مناظرته وإخامه . وذلك حق لك إن لم تطلبه اليوم ، فستطلبه في المستقبل ، مهما كان بعيداً .

قال الخليل : لقد سولت لى نفسى أمراً كهذا ، ولكنى أحجمت عنه حتى اليوم لأنى خشيت على نفسى ، إن أنا ظهرت فى المناظرة ، أن يأخذنى من الخيلاء ما يصرفنى عن التعلم . ومن حق نفسى على العلم ومن حقه عليها ألا يصرفنى عنه زهو أو باطل . قال صاحبه : إن خشيتك ضمان لك مما لا أرى خوفاً عليك منه ، فإلى الغد أيها الرفيق النابه .

عقدت حلقة النحو فى غد ذلك اليوم ، واجتمع الناس فيها من علماء ومتعلمين وشيوخ وشبان ، وأقبل أبو عمرو بن العلاء أستاذ العربية — وكان شيخاً جليلاً مهيباً قد جاوز الثمانين — فنهض الحاضرون إجلالاً ، فتصدهم على طنفسة بسطت لأجله . وشرع فى درسه بعد حمد الله . وكان الخليل وصاحبه قد اتخذا من الحلقة مكاناً ظاهراً ، ومع الخليل دفاتره ، وصاحبه يهمس فى أذنه حيناً بعد حين كلمات التشجيع ، يقول له : إن هذا يومك يا خليل ، وسيصغر علم هذا الشيخ المسن أمامك ، وسيحدث الناس جيلاً بعد جيل بغلبتك له . هذا والليل يبتسم له ويطمئنه وما عثم أبو عمرو أن غاص فى عويص مسائل النحو ، فظهر علم وفضل كبيران ، فالرجل متمكن من النحو ، عارف بخفياه . على

أن هذا العلم كان حديثاً ، ووجوه التفسير فيه ضيقة ، والقياس فيه قليلاً . وعثر الشيخ بمسألة كان الخليل مجلياً فيها ، فابتهجت أسارير رفيقه ، ومال إليه يقول : لقد أزفت الساعة ، هيا أظهر ما عندك ، واسأل سؤالك ، وسيرتبك الشيخ . قال ذلك ، وتهياً لسماع المناظرة التي لم يكن يشك في نتيجتها . ولكنه انتظر كثيراً والخليل مطرق لا يتكلم ، والشيخ ماض في بحثه ، وقد انتقل إلى قضية جديدة . وعجب أبو المعلى من وجوم الخليل ولم يجد لذلك تأويلاً إلا أن الخليل لم يشعر بصلاح المسألة التي مرت للجدال ، فصار ينتظر أن يعثر الشيخ مرة أخرى . ولم يطل انتظاره ، فهذا أبو عمرو يطرق بحثاً هو مكان القوة من تتبعات الخليل . فاطمأنت نفسه ، وأشار إلى هذا : أن قد قرب الحين . وأتى الشيخ في بحثه بأقوال قديمة مبعثرة . والتفت أبو المعلى إلى الخليل وقال : إليك وسعداك . فأطرق الخليل أكثر من ذي قبل ، وازداد عجب صاحبه واضطرابه . وقال له يدفعه : ما دهاك يا صاحبي أنسيت ما أتيت لأجله ؟ أيسرك أن يبقى عاملك دفيناً تطوى عليه أضلاعك ؟ فلم ينبس الخليل ببنت شفة ، ولم يعثر الشيخ بعدها ، بل أتى ببخسته من كل جليل ووثيق . ثم ختم دروسه

وقرأ الفاتحة . وأقبل الناس إليه يحيمونه ويمجلونه . ونهض الخليل
يحمل دفاتره ، وأبو المعلى قلق غضبان . قال : إنك يا صاحبي
أحد شخصين إما جبان وإما معتوه ، وأياً كنت ، فقد أضعت
فرصة لو نطقت بها لخرجت رئيساً من رؤساء العربية . قال
الخليل وهو يبتسم ابتسامة المستهزئ : لست جباناً ولا معتوهاً ،
واسكني رأيت شيخاً هرماً قد حمل العلم ستين سنة وأفاد الناس
وترأسهم خمسين عاماً ، رأيت يخرج علماً من عنده اكتشفه
وأذاعه ، فأخذته من شيوخى سهلاً يانعاً ، ثم فتق لى منه عدد
من المسائل ما كنت لأجدها لولاه . فوجدت قبيحاً بى أن
أسقطه بها — وقد أخرجتها بفضله — فأفصح علمه فى البلد ،
وأضيع حقه وحرمته ، لا فعلت ذلك أبداً .

الفصل الخامس

بهذا الخلق انطلق الخليل في الحياة ، ودخل معتكها ، ونفسه راضية بما أقرها عليه ، مطمئنة إلى أمرها لا تجادل صاحبها ، ولا تورده مورداً غير مورد الكرم والمروءة . كانت تلك النفس تسمو ، وصاحبها يقود زمامها فلا يتعبه الصعود ، والمرء قوى بما عقد الهمة عليه .

وانقطع إلى النجو ، واتصل بأبى عمرو بن العلاء ، وبسط له المسائل التي وجدها ، فأعجب بها ، وشجعه على المضي ؛ وأحدث في نفسه الثقة بنبوغه ومقدرته . فانطلق إلى التفكير والإبداع ، وكانا أعز سجاياه ، فما كان الناس يرونه إلا مطرقاً يعمل فكره ، وسائراً على غير هدى ؛ وكان لا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء ، وقد خرج من المدينة ، فيرتد على عقبيه . وانكشفت له مسائل النجو فصار يبحث عن قواعد عامة يحصرها بها ؛ ويعود إلى التفكير هذه المرة أكثر من ذي قبل ، فالقواعد العامة المنطقية ليست

أمراً سهلاً إيجاداً في لغة كثرت لهجاتها ، وتوزع أهلها في بلاد واسعة . ولكن الخليل ليس من أولئك الذين توقعهم الصعوبات . كان إذا وجد في قياسه خللاً ، أحدث قياساً جديداً ، بل قياسات عديدة . ولم يكن يرتضى بالنتيجة التي يصل إليها ، مهما كانت خلافة ، بل كان يأبى أن يخلب بالظواهر الخداعة . وسر الأمر في ذلك أنه لم يكن يعمل ليرضى من نفسه حباً في الشهرة ، أو رغبة في الظهور ، أو ميلاً إلى التبجح . كان يجد لذة في الفكر ، وسروراً في التأمل ؛ فلا يثنيه شيء عنهما . حتى إذا كشف عن سر لم يجعل ذلك غاية سروره ، بل عاد إلى التأمل فيه ونقده بل نقضه .

واكتشف في النحو قواعد وروابط أدهشت شيوخه ، وأظهرت عبقريته ، فأمن بها أكثر الناس ريباً . وأحذق به العلماء ، يرفعون من شأنه ويمدحونه ، فدخل في نفسه شيء من الاعتزاز الذي يصيب كل الناس ، وما كان له أن يعتز ، فأرسل إليه من ينقض تشاخه .

هذا رجل يأتي إليه ، ومعه غلام ، فقال له : هذا ابني وعزيزي ؛ ورغبتي إليك أن تكمل تعليمه ، وتحسن إرشاده .

فقال الخليل للغلام : اقترب يا بني ، ودعني أسألك أسئلة أدرك بها درجة معرفتك . فقال الغلام بجرأة : سل ما تشاء . قال : يا بني ! أرايت هذه النخلة ؟ قال : نعم . قال : فصفها لي . قال : إن لوصفها وجهين ، فإما أن يوصف ما حسن منها ، فتبدو صالحة ، وإما أن توصف مساوئها ، فتبدو سيئة . أفبمدح أم بدم تريد أن أصفها ؟ قال : أحسنت يا بني بهذا التفصيل ، وإني أفضل أن تمدح نخلتي ، فتحببها إلي . قال : إنها حلوة مجتناها ، باسق منهاها ، ناضر أعلاها . قال الخليل : حسن يا بني ، وعساها أن تكون كما قلت ؛ فذمها لي حتى أعرف سوءها . قال : إنها صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، مخوفة بالأذى . فنظر الخليل إلى الغلام مشدوهاً مدهوشاً : غلام لما يبلغ الحلم يحسن من الكلام والأدب ما لعل العلماء يعجزون عنه . تخيل نفسه بهذه السن ، فتذكر أنه لم يكن يتصور الأشياء كما يتصورها هذا الغلام ، ولا يحسن من الفكر ما يحسنه ، وبدا له أن الغلام إذا بلغ من العمر سنه كان بحراً في العلم يغترف منه ؛ فصغرت نفسه عنده ، وسقط اعتزازه بها . والتفت إلى الغلام وقال : يا بني نحن إلى التعلم أحوج منك .

لم يكن هذا الغلام إلا النظام ؛ ذلك الرجل الذي ترأس
 المعتزلة يوماً ، والمعتزلة أئمة البيان ، وأسياد القول ، بل وصفوا
 بالكلام ، ونسبوا إليه ، فساهم الناس متكلمين ، على كره منهم
 بهذا اللقب . ولعله خفي على الخليل أن ذكاه غير ذكاء الغلام ؛
 رزق هو من التفكير والنظر العميق ما لم يرزق النظام ، واتصف
 هذا ببيان وبلاغة وانطلاق لسان لم يوبها هو . وكذلك عد
 نفسه مقصراً أمامه ، وكذلك أراد الله له الخير ، فأبعد الخيلاء
 القتل عنه .

الفصل السادس

انقطع إلى التعليم ، يجد فيه تسليمة ، وضرباً من اختبار آرائه ، وتوطيد علمه . وقد يجد فيه الفكاهة الكثيرة .

وقف حمار على باب الخليل ، ونزل منه رجل عليه علامة السفر ، ثم أنزل ابنه ، وطرق على الباب طرقة مستمراً ؛ فأقبل الخليل يستجلى الخبر ، فوجد الرجل وابنه ، خياهما ودعاها للدخول ، فدخل الرجل ، وهو يظهر الرغبة في السرعة ؛ وعرف الخليل ذلك منه ، فأراد أن يرضى رغبته ، فعجل إليه بالسؤال عن بغيته ؛ فشمر الرجل عن ساعديه ، وقال يعتمد البلاغة : تبئت بنبوغك ، وأسمعت الشيء الكثير عن ذلك فعولت على أن أجمع ابني بك ، فيتعلم منك ، فجئتك به من سفر بعيد تحملت مشقته ؛ ولا إخالك إلا رأيت الحمار الذي حملنا . قال الخليل ، وهو ينتظر ختام القصة : نعم رأيته ، وإنه للجميل . قال الرجل : أريدك على أن تؤدب ابني شيئاً من علم النجوم ،

وأن تعلمه ما يكفيه من النحو ، وأن تلقنه ما يحتاج إليه من
 الطب ، وأن تفهمه فرائض الفقه ؛ ثم نظر الرجل إلى الباب ،
 وأشار إليه وقال : إن الحمار على الباب ينتظر فراغك من ذلك
 لنعود عليه ... ضحك الخليل في نفسه ضحكاً كثيراً أخرجه عن
 اعتداله وجده ، فقال : إلى يا بني لأعلمك ما يرغب والدك من
 هذه العلوم . اعلم يا بني أن الثريا في وسط السماء ، وكفالك بذلك
 معرفة من النجوم ؛ وأعرف أن الفاعل مرفوع ، وبتلك المعرفة
 بدىء النحو ، ولعله بها يختم ؛ ولتدرك أن الهليلج الكابلي دافع
 للصفراء ، وهذا من الطب في مكان عظيم . واعلم أنه إن مات
 أحد وترك ابنين ، فماله وثروته وممتلكاته وأمتعته تقسم بينهما
 سواء بسواء ، وذلك أصل علم الفرائض . إنك يا بني إن عرفت
 ذلك ، أدركت من العلوم التي ذكرها والدك ما يليق بك
 — وأنت ابنه — أن تعرف منها . فشكر الرجل الخليل وقال :
 قم يا بني ، ولا تنس ما قال الشيخ لك ؛ وفتح الباب ، فوجد
 الحمار ينتظر عودتهما ليحملهما والعلم الذي أصاباه .

الفصل السابع

انقطع الخليل أمداً طويلاً عن الناس ، وصار أصدقاؤه يبحثون عنه ، فلا يرونه . ومنهم أبو المعلى بحث عنه كثيراً فلم يجده ، وسأل عنه في بيته ، ف قيل له : إنه يخرج في الصباح الباكر ، فلا يعود إلا في الأمسيات المتأخرة . وترصده صباح ذات يوم ، فرآه يسير في غير التفات ، فتبعه فألفاه يخرج من المدينة ، فعجب من أمره وظل يتبعه ، فوجده يسير على غير هدى ، فتقدم إليه وحاذاه ، فلم ينتبه الخليل ، فجذبه من ساعده ، فاضطرب ونظر إليه وقال : هذا أنت يا أبا المعلى ، ما الذي أتى بك ، قال : ألى عاشق ولهان مثلك ، أهيم في الصحراء ، أتصور خيال عشيقتي في رملها . قال الخليل : دع عنك هذا ولا تهزل فما نحن في الهزل قال : فقيم إذن نحن ، أوليس العشق هزلاً وعبثاً ؟ آه عفواً ، فالمغمومون لا يديحون للناس أن يسخروا من حبيهم ، فلن أهزل بل أجد ، قل لى : من هى ليلاك ؟ قال الخليل : لا ليلى عندى

يا هذا . قال : لعلك تريد أنك لما تبجن كمبجنون بنى عامر ، فستبجن
أو لعلك جننت وأنت لا تدري ، قل لى : من هى حبيبتك ؟
فنظر إليه الخليل نظر الدهشة وقال : ألم أقل لك لست عاشقاً ؟
قال : إن كنت غير عاشق ، فذلك أعجب ، ما كنت أقدر أن
المرء يؤثر الصحراء على المدينة ، فيهجر الناس حتى يخالوه مفقوداً ،
فقل لى ما بك حتى أطمئن . قال : إن ما بى لا يهمنى . قال :
لقد زدتنى حيرة ، أذكره فسيستثير كل نفسى . قال : أفتخفيه
إذا ذكرته ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ أخرج الخليل من مكه صحيفة ،
وقال : اقرأ . فتأمل أبو العلى فى الصحيفة ، فوجد كتابة عليها
النقاط من فوقها وتحتها ووسطها حتى أضاعت هيئة الكلمات .
فقال : ما هذا ؟ أتلفز إلى شئ أم أنت فى هذر ؟ قال : لا هذا
ولا ذاك . ولكنك تعلم أن الحروف التى تتشابه صورتها تميز
بعضها عن بعض فى الكتابة بنقاط ، كالجيم تميز عن الحاء بنقطة
فى أسفلها . قال : نعم ، إن هذا أمر بديهي . قال : وأنت
تعرف أيضاً أن أبا الأسود الدؤلى رحمه الله ضبط حركات
الحرف من فتح وضم وكسر وسكون بالنقاط أيضاً ، توضع
بأعلى الحرف أو أسفل منه أو يمينه أو شماله ، وأنت

تعرف أنا نستعمل ذلك إلى يومنا . وهكذا تختلط النقاط
 المميزة للحروف بالنقاط المميزة للحركات ، كما ترى في هذا الرسم .
 قال أبو المعلى : يا للعجب . من ذا الذى يخطر له ببال أن يفعل
 فعلتك ، وينسى أن لا مجال لاختلاط النقاط ، إذا كتب كل
 نوع منها بجزء خاص . فالنقاط المميزة للحروف تكتب بالأسود
 والضابطة للحركات بالأحمر . قال : إن ما يشغلنى ويبعدنى عن
 الناس هو تسهيل الأمر على المتعلمين والكاتبين والقارئ ،
 أريد أن أجد ما يكتب الناس به دون تغيير الخبر ، وأود ألا
 يضطرب أمر المتعلمين من كثرة النقاط واشتباكها . قال أبو المعلى :
 أنت تقصد البدعة والخروج على ما ألفه الناس ، ووضعه الصحابة
 ورضوه ، وكتبوا به المصاحف ، وصار رسماً على المسلمين . فوالله
 لا يعرف الناس منك هذا حتى يهتموك بالشئ الكثير . دع
 عنك هذا الهذر ، وعد إلى رشدك . قال الخليل : ألم أقل لك
 إن الأمر لن يستهويك ، ولن يهملك . قال : ولكنك تفكر فيما
 لا فائدة منه ، ولا أجر لك فيه . ثم ماذا لعلك تجد غير ما اعتمده
 أبو الأسود الدؤلى ، وأقرته النجاة والكتاب ؟ فابتسم الخليل

وقال : ذلك سؤال محجب إلى ، وهو الذى استهوانى ، ومنعنى
عن الناس ، فان أخفيته حتى آذن لك ، بسطته أمامك .

قال أبو المعلى متشوقاً ، أنا سامع لك ما تريد . فقال الخليل :
الأمر الذى خطر على بالى هو على غاية من البساطة ، وذلك أن
يرسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذى يقابل حركته فان

كانت حركته الفتح وضعنا عليه ألفاً صغيرة ، وإن كانت الضم
وضعنا عليه واواً صغيرة ، وإن كان الكسر وضعنا ياء صغيرة . قال :

ما أعجب ما تقول ، إنك تشوه الخط يا صاحبي ، وتزيده ارتباكاً .

قال : لا يا هذا ، أنظر الجمل المحررة فى الصحيفة التى لم تستطع

قراءتها أنظرها هنا ، أليست مقروءة ؟ فنظر أبو المعلى ، فوجد خطأ

قد علته حروف عديدة من الألفات والواوات والياءات ، فلم

يستحسنه وقال : لقد شوهت الخط وأسأت إليه ، فعد عن غيك .

قال : لن أعود . وسأدعو الناس اليه ، حين أتم تصحيح بعض

نواقصه ، فهز أبو المعلى كتفه ، وانطلق يتحدث بمحدث آخر . أما

الخليل فما اتبع نصيحة صاحبه ، بل أذاع طريقته بعد تحسينها ،

فاستقبلها الناس بالهزؤ ، وقليل منهم بالاستحسان . فما زال يدافع عن

أسلوبه حتى أقنع كثيراً من مخالفيه ، وبقى قوم متعصبون للتقديم

لم يقنعوا ، وخافوا على نص القرآن أن يتغير بهذه البدعة ، فأذعن لهم الخليل ، وأوجب على طريقته أن لا تتخذ في القرآن . وتوفي ، وفي بلاد الإسلام من لم يرض بها ، وهم أهل الأندلس تعصباً أو لغير ذلك ، ثم أذعنوا لحسنها ، بل أذعن علماء القراءات لها ، فأدخلوها في القرآن ، وذلك بعد وفاة الخليل بدهر .

الحق

الفصل الثامن

كان مقام الخليل يعلو بين الناس ، ونظرتهم إليه تزداد
 إجلالاً وإكباراً ، وكان هو يزداد تواضعاً وحسن أخلاق ؛ وأهم
 من ذلك أن علمه كان يربأ به عن أن يهتم بكيد الناس ، وأن
 يعبأ بأذاهم . كان يصنفهم طبقات ، فيرى أن لكل طبقة منهم
 حقاً يوجب عليه ألا يضم لها الشر ، مهما كان اعتداؤها عليه
 شديداً . كان ينظر إلى الناس نظراً عميقاً ، ويجعل موقفه منهم
 تبعاً لصنفهم ؛ فلمعتدى عليه لا يمكن إلا أن يكون واحداً من
 ثلاثة : أعلى منه مقاماً ، أو مساوياً له في الرتبة ، أو دونه . وكل من
 هؤلاء يستحق أن يسكت عن هفوته . اسمع قوله في ذلك حيث قال :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب	وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوق فأعرف فضله	واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي مثلي فإن ذل أو هفا	تفضلت إن الفضل بالز حاكم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن	إجابته عرضي وإن لام لأنم

ما هذه النفس ، وما أصفى جوهرها ، وأكثر رشدها ،
 وأحسن حكمتها . لا ريب أن سفیان الثوري لم يكن مغالياً حين

كان يقول : « من أحب أن ينظر إلى رجل خالق من الذهب
والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد ». لقد كان مسكاً وذهباً ،
 بل لو كان خير من صفات المسك والذهب في الجوهر ، لكان
 له . لم يكن سفيان مغالياً ؛ فهذا أبو حاتم يؤيد قوله وينشد
 في الخليل :

قد صاغه الله من تبر ومن ذهب وصاغ راحته من عارض هطل
 لم يكن في ذهن الخليل من الفراغ ما يشغله بالخصام مع
 الناس ، والتصدى لمعاداتهم ؛ بل كان يضمن بنبوغه وبوقته
 أن ينفقه فيما لا يرجى خير منه . ثم إن التشفي ضعف يصيب الإنسان
 فإن كان عاقلاً منع نفسه منه ، وعوضها عن لذته بلذة العلو
 والتسامي عن سفاسف الأمور .

بهذا العقل وذلك الخلق كان يتهيأ للخليل من الوقت والفراغ
 وصفاء ذهن ما يسعفه بالإبداع والخلق . كان يطلق فكره
 للأشياء المحيطة به ، يحاول استخراج كنهها ، والوصول إلى
 حقيقتها ، لا يرى ظواهرها فقط ، بل يحاول أن يستخرج
 منها أصولاً تجمع في قانون موحد ، تلك الظواهر المختلفة المتضاربة
 المتشعبة . وذلك شأن المبدعين .

الفصل التاسع

خرج يوماً وأبو المعلى يسيران في شوارع البصرة وأسواقها ،
يتحدثان حيناً ويصمتان حيناً آخر ؛ وكان أبو المعلى أكثر
قولاً من صاحبه ، وأشد تمسكاً بالحديث . ومازالا يسيران حتى
دخلا سوق الصفارين — وهى كسوق النجاسين اليوم ، تعمل
فيها الأواني النحاسية وتصفر — ويسرع أبو المعلى في مشيته
لينجو من أصوات النحاس وطرقه ، وكانت تبلغ أذنه فتدوى
فيها ، وتثقل عليها ؛ ولكنه يرى الخليل متباطئاً واقفاً حيناً
بعد حين ؛ فيقول له رافعاً صوته ليسمعه : هل يلذ لك هذا
الصوت المزعج ، فتسير الهوينا ، وكأنه الموسيقى التى تسمعها
فتستحسنها ، ولا تريد الابتعاد عنها ؟ لمعت عينا الخليل عند
سماعه كلمة الموسيقى ، وربت على ظهر أبي المعلى وقال : أحسنت
وجزاك الله خيراً ، لقد عبرت عما فى نفسى ؛ نعم ، هى تشابه
الموسيقى . قال الآخر هازئاً : نعمك يا صاحبي ، أراك تحسن

الفهم ، لقد أصبحت قعقة أواني النحاس عندك موسيقى جميلة
 تأنس لها . قال الخليل ، لا تهزأ يا هذا ، ما قلت إنها موسيقى
 جميلة ، إنما قلت إنها تشابه الموسيقى ؛ وحقاً ما الفرق بين هذه
 الآنية من النحاس يقرع عليها بالمطارق ، وبين الطبول والدفوف
 يقرع عليها بالعصى وبالأيدي ؟ كل الفرق هو أن هذه تحدث
 دويًا قويًا ، لا تقوى عليه الأذن ، وتلك تقع من الأذن موقعاً
 حسناً . قال أبو المعلى : هلم يا صاحبي نخرج من هنا قبل أن تصم
 آذاننا ، أو بالأحرى قبل أن تستوى عندك الأرض والسماء .

خرجنا من سوق الصفارين ، والخليل يردد في ذهنه فكرة
 التشابه بين طرق النحاس وقرع الطبول ؛ وما ذهبنا بعيداً حتى
 دوى في أذنهما صوت هو صوت سوق القصارين . والقصارون
 أناس ينظفون الأثواب ويفسلونها ، يستعملون لذلك أدوات تسمى
 الكذيق ، وهي مطارق من الجلد ، يطرقون بها الثوب المغسول
 طرقة مستمرة ؛ ومن الكذيق ما يحمل قطعة من الجلد ، يضرب
 به الثوب ؛ ومنه ما يحمل قطعتين ؛ ومنه ما يحمل ثلاث قطع
 حتى إذا ضربت بها الأثواب المغسولة ، أحدثت قرعاً مختلفة
 أوزانه وضرباته باختلاف عدد قطع الجلد .

سمع الخليل هذا الطريق ، فاتجه نحوه ، واضطر أبو المعلي إلى أن يتبعه على كره منه . ووقف الخليل يستمع إلى قرع الجلود على الأثواب ، وكأن هذه الجلود كانت تسر إليه بحديث لا يفهمه إلاه . والتجأ إلى حائط أسند إليه ظهره ، وأخرج لوحه ، وصار يكتب عليه خطوطاً غريبة ، ولم يعد ينتبه إلى أبي المعلي الذي وقف بقربه مشدوهاً ، وإلى المارين ينظرون إليه ، فيهن بعضهم منكبيهم سخريه منه ثم يسرون ، ويقف بعضهم حوله يتأملون عمله ، ويضحكون منه ، وهو مأخوذ بسماع الدق ، يحرك فكليه ولسانه ، ويكتب على لوحه . وكان أبو المعلي يعرف في صاحبه حبه بالألّا يقاطع حين ينطلق إلى التفكير أو العمل ؛ ولكنه هذه المرة فرغ صبره ، فقال له : لعلاك تجدد يا خليل مكاناً أليق من هذا بالبحث والتفكير ، لقد جمعت الناس حولك ، وأخشى أن يحضر الصبيان ، فيرموك بالحجارة ظناً منهم أنك معتوه يجوز لهم تعذيبه . قال الخليل : وقد انتبه من ذهوله ، وشاهد الناس حوله : لقد نهتني في حين بلغت فيه نتيجة أراها حسنة ؛ فهل بنا نبتعد عن هؤلاء الناس الذين لا يفرقون بين الجدد والعبث . تعال معي إلى هذا المكان الضيق المنفرد ، واسمع

ضرب الكذيفقات . قال أبو المعلى : أراك تهزل اليوم يا خليل ، بدأت بالنجاس ، وعظمت على الجلود ، ما شأنك بذلك ، وأنت النحوى الغوى ؟ إذا لم تعجبك كلمة الكذيفق ، فاختر لفظاً آخر ، وأشعه بين الناس ، فذلك اختصاصك ، ولكن بالله عليك لا تسمع هذا الصوت المنكر ، وتسمعنى إياه . قال الخليل : إنك يا هذا تقطع على تفكيرى بهذرك ، فليس يهمنى اليوم كلمة الكذيفق ، ولست أستمع إلى هذا الصوت حباً به ، ولكنى أقصد أمراً آخر سوف تبيّنه من سماع الكذيفقات . اسمع هذه الدقات ، ألا تشابه دقات الصفارين ، ولكنها جامدة بسيطة لا رنة فيها ؟ أنظر إلى هذا القصار ، وسمع دقة كذيفقه ذات الجلد الواحد . كان القصار الذى أشار إليه الخليل يقرع الثوب ، بجلد يحدث صوتاً شبيهاً بالصوت الذى يحصل من كلمة (تن) ولكن القصار كان كسولاً أو ملولاً ، فكان بين القرعة والقرعة فاصل من الزمن يطول أمده ؛ فكان يحدث صوتاً هو (تن تن) ولكن النون منه طويل . قال أبو المعلى : ما أطرب هذا الصوت ، وفشر معبد ، ومرحى لنا ؛ انتقلنا من البحث فى صوت الإنسان ولقته إلى البحث فى أصوات الجلود والنحاس

ماذا بعد هذا الصوت الشجي يا صاحبي ؟ قال الخليل : استمع
 إلى هذا القصار الذي يضرب بكذيق ذات جلدتين . ففتح
 أبو المعلى أذنيه ، وأضاف إلى صماخهما يديه ، فسمع صوتاً متكرراً
 (تن تن تن) فقال مازحاً : أنى أفضل صوت القصار الكسول
 على هذا ، فهو أقل ضجة وأكثر رنيناً . قال الخليل : ولكنك
 تفضل سماع الاثنين معاً ، فانتظر قليلاً حتى يختلط الصوتان . قال
 أبو المعلى ، وقد ازداد تأفقه : لعلك تريد أن تصم أذني ، فحسبي
 ما سمعت ، وقل لي الآن ماذا استنتجت من هذه الأصوات
 المزعجة ؟ قال الخليل : لن يكون ذلك إلا بعد أن يزداد صبرك ،
 ويشتد اهتمامك ، وتصغى إلى تداخل الأصوات . قال : أمرى
 إلى الله ، إن الله مع الصابرين . وما انتهى إلى هذا القول حتى
 تداخل صوت قرع القصار الملول بالآخر فسمعا (تن تن ، تن
 تن ، تن تن) ووقف القصار الملول قليلاً ثم عاد فسمعا (تن
 تن ، تن تن ، تن تن) وتوقف القصار الآخر قليلاً ، ثم عاد متباطئاً ،
 فسمعا (تن تن تن ، تن تن ، تن تن تن ، تن تن تن ، تن تن تن)
 قال أبو المعلى : أحسبني في شهر رمضان ، وقد حضر المسحر ،
 يقرع على طبله ليفيق النائمين .

قال الخليل: نعم التشبيه هذا، ها قد بدأت تفهم. إنك أذكرني مما كنت أظن. قال أبو المعلى: لا تتخضع يا أخى، فلم أفهم شيئاً، ولا أخالني أفهم أبداً. وما ذكأتى بفهم هذه الأصوات إلا كذكاء الطفل بفهم حروف التشبيه وأسماء التفضيل. قال الخليل: عجباً لك ولأمثالك! ترون الأشياء ولا تبصرونها، وتسمعون الأصوات ولا تميزونها. وتحفظون المعانى ولا تدركونها. ها أنت ذا شبت هذه الأصوات بقرع الطبول فى إيامى رمضان ولو طلب إليك طالب أن تذكر له وجه التمييز بين قرعها فى تلك الليالى وبين قرعها على أبواب الأعراس لما عرفت. قال أبو المعلى: أنى لى أن أعرف ذلك، وأنا لا علاقة لى بالموسيقى، ولا شأن لى معها، فاذا كنت قد وجدت شيئاً فاذكره حتى أتعله. قال الخليل: ستسمع ما يشابه قرع طبول الأعراس فتستنتج ما استنتجت، فانتظر قليلاً. فانتظر أبو المعلى صابراً راضياً، وانتظر طويلاً، وإذا بقصار ثالث يبدأ قرعه بكذنيق ذات ثلاثة جلود، فيختلط صوت قرعه بصوت قرع الاثنين الأولين فيخرج الصوت الآتى (تن تن تن تن تن تن، تن تن تن تن تن تن). قال أبو المعلى: إن بين هذا الصوت وقرع الطبول ليلة الأعراس

بعض الشبه ، فقل لى الآن — قبل أن يفرع صبرى — ماذا استنتجت من كل ذلك ؟

قال الخليل : الأمر على غاية من البساطة ، فهناك ثلاث نقرات مختلفة . الأولى دقة وسكون (تن) الثانية دقتان وسكون (تتن) الثالثة ثلاث دقات وسكون (تتتن) هذه النقرات إذا تتابعت أو تداخلت كونت الموسيقى . واختلاف تداخلها وتتابعها هو الذى يولد اختلاف النغمات ، فالتمييز بين النغمات يكون بمعرفة وجه اجتماع النقرات بعضها مع بعض ، بل من الممكن حصر الوجوه التى تتداخل بها النقرات وإذا حُصرت حُصرت بها أنواع النغمات وسجلت وسميت ، وأصبحت الموسيقى علماً ، له تعاريفه وضوابطه .

كان أبو المعلى ينظر إلى الخليل ، وهو يشرح اكتشافه بحرارة وإيمان ، فيدخل كلامه فى أعماق نفسه ؛ ويشعر بصحته ، حتى إذا انتهى الخليل من شرحه ، نظر إليه نظراً طويلاً ساكناً اجتمعت فيه عواطف نفسه ، فلم يتمالك أن تقدم إليه وقبله ؛ ثم لم يجد كلمة يعبر بها عن إعجابه ، فصار الدمع ينهمر من عينيه ، فعاد إلى صديقه يضمه إليه ليخفى تلك العاطفة التى جاشت فى

صدره وانتقلت إلى عينيه ؛ وأخذ يضرب بيده على ظهر الخليل ،
ويقول بصوت خفيف متقطع . الله أنت : الله أنت !

أما الخليل فلم يكن يتوقع هذا النصر على معارضة الهازل
الضاحك الذي انقلب إلى معجب يحيش بالدموع ، فأحس في
أعماق نفسه بنشوة من السرور كادت تسيل دموعه ، لولا أن
ضبط نفسه ، وملك عواطفه ؛ وعاد إلى الحديث عن اكتشافه ،
فقال بمرارة : لا تظن أن الأمر بلغ حده يا صاحبي ، أو أنه شيء
جديد لا يعرفه غيري وغيرك ، والذي يخيل إلى أن الموسيقيين
العارفين قد قطعوا هذا الشوط من النظر ، بل لعلمهم يهزأون بي
عندما أحدثهم عما وجدت ، وقد يقول قائلهم ساخراً : إن ما تذكر
أبسط شيء في فننا ، يتعلمه صغارنا ، ويرفع عن ذكره كبارنا .
قال أبو المعلى ، وقد أخذ الجد يلazمة : لنذهب الساعة إلى
أبي رافع ، فنتبين الأمر . فقال الخليل : ومن هذا أبو رافع ؟ قال
أبو المعلى . هو شيخ المغنين وأستاذهم ، يعلمهم الغناء وفنون الإيقاع
على الآلات قال . الخليل : هلم بنا إليه ، فساروا إلى بيته ، ووجداه
بين طائفة من أهل الغناء ، يتعلمون عنده ولما فرغ من درسه
أقبل عليهما يسألهما عن حاجتهما ، فقال الخليل : أتيناك نسألك

عن وجه التمييز بين النغمات المختلفة ؛ فنظر إليه أبو رافع نظر
 المتعجب وقال : أنت تريد أن تتعلم التوقيع على العود ، أم الغناء
 أم العزف على الدف ؟ قال الخليل : ما أريد أن أتعلم شيئاً من
 هذا ، إنما قصدتك لأعرف قواعد علم الموسيقى . قال أبو رافع :
 ما أفهم ما تقول ، وأى شيء تكون قواعد الموسيقى ، هل ظننت
 الموسيقى نحوآله قواعد وأصوله ؛ أنت تقصد أمراً لا وجود له .
 فنظر أبو المعلى إلى الخليل نظر المبتهج . وأضاف أبو رافع يقول :
 بل هو أمر لا يمكن أن يكون . قال الخليل : إسمع ما أقول
 اذن ، وأنبئني بعدها برأيك . قال أبو رافع : لا تتعب نفسك
 بالحال يا هذا ، ومن تكون أنت حتى تجد ما لا يمكن وجوده .
 قال أبو المعلى : ألا تعرف الخليل بن أحمد سيد النحاة واللغويين
 بالبصرة ؟ قال أبو رافع : بلغني بعض الحديث عنه ؛ ولكنى
 أراه اليوم قد ضل سبيله ، فليرجع إلى نحوه ولغته . قال الخليل :
 دعنا من كل هذا يا شيخ وسمع ما أقول . ثم شرح له ما وجد
 فصار المغنى يهز رأسه ، ويرفع منكبيه ، ويحملك فيه ؛ ولما فرغ
 الخليل استوى أبو المعلى فى جلسته ، وانتظر امتداح المغنى صاحبه
 وإعجابه وإطنابه وإذا هذا يقول : لعل فيما ذكرت شيئاً من

الصحة والاكتشاف ، ولكن ماذا يستفيد المغنون والعازفون من ذلك ، أترداد يدهم مهارة في التوقيع ، أم صوتهم جودة في الغناء ؟ احتفظ بهذا لنفسك ، ولا تتعب في إذاعته .

ما سمع أبو المعلى هذا القول حتى كاد يرتدى على رقبة أبي رافع فيدقها ، أو إلى وجهه فيوسعه لطمًا ، ولكنه نظر إلى الخليل فوجده يبتسم هزواً ، ويشير إليه بأن يقوم معه ، فخرجا . قال أبو المعلى : لانحزن يا صاحبي ، فهذا رجل لا عقل عنده ولا شعور ، وافرح بما أوتيت ، فقد اكتشفت ما لا يعرفه أصحاب الصنعة ، وهذا عطاء من الله لم يمنحه غيرك .

عاد الخليل إلى بيته ، وهو لا يدرى أمسرور هو أم حزين . لقد اكتشف سر الموسيقى وأصلها ، وليس من الصعب عليه أن يصنف فيها كتاباً يضبط أنواعها ، ويميز أصنافها . ولكنه حزين لأن اكتشافه لم يلق تشجيعاً من أصحاب الفن ، وهو إنما ينفع هؤلاء .

ما مضى عليه طويل زمن حتى أخرج كتاباً في الموسيقى أسماء تراكيب الأصوات . واتصل بالمغنين ، وصار يعلمهم أصول موسيقاهم وتفرعاتها ، ويهديهم سبيل إيجاد نغمات جديدة ، ويتعلم

منهم ففهم ، ويتتبع صناعتهم ، حتى لها بذلك عن النحو واللغة .
 وكان يستصحب أبا المعلى إلى هذه المجالس ، فيضحك أبو المعلى
 ويصفق ويطرب . أما الخليل فكان يكثر التأمل ويردد اللحن
 وينشد الأناشيد ، ويقطعها .

ومضى عليه زمان ، وهو يستصحب لوحه إلى مجالس المغنين
 فيرسم عليه رموزاً لا يفهمها أبو المعلى ، ويسأله عنها فلا يجيبه .
 وتغير بعض الشيء طبعه ، فصارت تصدر عنه أصوات غريبة ،
 وأناشيد عجيبة ، يديرها على لسانه المرة بعد المرة ، فيفرح لها
 حيناً ، ويغتم لها تارة أخرى ، وأبو المعلى مستغرب طليعة
 متشوق إلى معرفة أمره حتى كانت ليلة انطلق فيها المغنون إلى
 الشعر الجاهلي والأهازيج القديمة يغنونها طربين . والخليل عاكف
 على لوحه ، يرسم عليه ، ثم ينطلق إلى الغناء معهم ، ثم التصفيق
 ثم الضرب بقدمه على الأرض ، ثم يعود إلى لوحه ، فيسوده
 برموزه ؛ وقد استوى أبو المعلى في جلسته ، وصار يراقب حركاته .
 فيزداد عجبه ، ويقول في نفسه إن الرجل قد أصبح مغنياً ، بعد
 أن كان لغوياً ، وهاهو ذا الآن ينطلق في هذا الفن ، ولا بد أنه
 أخرج فيه جديداً وفيما هو يفكر هذا الفكر ، وجد الخليل يقف

و يصرخ قائلاً : الله أكبر ! الله أكبر ! السكون في الشعر هو كالسكون في الموسيقى . ثم أقبل على أبي المعلى ، ومسكه من كتفيه وهزهما وقال : إسمع يا أبا المعلى ! السكون في الشعر هو كالسكون في الموسيقى . وكان المغنون قد بلغوا آخر نشيد لهم فصار الخليل يردد معهم وينشد ، ثم يعود إلى أبي المعلى فيقول السكون في الشعر كالسكون في الموسيقى ، فيضحك أبو المعلى كالأبله ، وينشد معه ، ولكنه لا يفقه ما يقول ، حتى أتم المغنون إنشادهم ؛ فقاد الخليل إلى مكان منعزل وقال : أفهمني ما معنى قولك : «السكون في الشعر كالسكون في الموسيقى» قال : إن لهذا حديثاً طويلاً . قال أبو المعلى : حدثني به ، فقد شوقني إلى معرفته .

قال الخليل : ألا تذكر ليلة من ليالى شتاء السنة الماضية حين اجتمعنا بطائفة من الأعاجم ، نتباحث أمر الشعر العربي وغيره من الأشعار ، فقال الأعاجم : إن الشعر العربي لا ضابط له ولا أصل ، مع أن شعر اللغات الأخرى بخلاف ذلك ، قد اتضحت أصوله ، وعرفت مقاييسه ، فلا سبيل إلى الخروج عليه . فرد عليه أحد الحاضرين من أبناء العرب قائلاً : إن

الشعر العربي أصله الطبع ، ومقياسه الأذن . فقال الأعجمي :
ما قولك إذا فسد الطبع ، واختل مقياس الأذن ، ماذا يحصل
بالشعر يومئذ ؟ فأجابه العربي بما لم يقنع المخالف .

قال أبو المعلى : أنا أذكر ذلك ، وأذكر أنك كنت صامتاً
لا تتكلم . قال : نعم كنت أزن القولين ، فأجد الأعجمي مصيباً
فيما يقول ، كنت أقيس أمر الشعر إلى أمر اللغة والنحو فأقول :
سوف يكون من أمر الشعر العربي في يد الأعاجم ما كان من
اللغة العربية عندهم ، فقد أخطأوا فيها ولحنوا ، واضطربت على
ألسنتهم ، حتى تصدى لها النحاة ، فوضعوا قواعد للأعاجم
وضبطوا بها خطأهم . وهذا الشعر أصبح اليوم أداة يستعملونها ،
فيخطئون في أوزانه ، ويضطربون في تعديله ؛ وما يدرينا لعل
من العرب من يفسد طبعهم ، فلا يستطيعون التمييز بين شعر
وشعر ، وقد يضيع عليهم الأمر فلا يهتدون إلى الحق . كذلك
لبثت صامتاً . ومنذ يومئذ وأنا لا أفتأ أفكر في هذا الأمر . ولما
فتح الله عليّ بمحصر أصول الأنغام والتواقيع ، شعرت بأن وضع
مقاييس للشعر أصبح أمراً ممكناً . فالشعر ينشد مع الموسيقى
ويرافقها ، فيجب أن يكون له مقاطع كمقاطعها ، لتتحد المقاطع

حين الإنشاد ، فتصح المرافقة ؛ وإذن فمن الممكن إيجاد مقاطع
للشعر ، حتى إذا وجدت عُرفت المقاييس الشعرية ، ووضع
ضابط الشعر . منذ ذلك الحين كنت ترانى أسير إلى المغنين ،
وأُشد معهم ، وأقابل تقاطيع الموسيقى بألفاظ الشعر ؛ بل كنت
أذهب الحين بعد الحين إلى سوق القصارين ، وأُزن نقراتهم
ببعض الأناشيد ، وأُشد الشعر على تلك النقرات . وكان أعظم
شئ يلفت نظري هو نهاية المقطع الموسيقي ، أى السكون ، وهو
ما يقابل النون في (تن) و (تتن) و (تتتن) حتى تجلى لى هذه
الليلة أن ما يقابل ذلك أحد شيئين في الشعر ، إما الحرف الساكن ،
وإما حرف المد . وحرف المد فى النحو — كما تعرف — يستبدل
بالحرف الساكن ، والحرف الساكن به ، فهما سواء . فالسكون
فى الشعر هو السكون فى الموسيقى . والشعر كالموسيقى حركة
وسكون ، وبالحرف الحرك والحرف الساكن ينتظم وزن الشعر
ويضبط . ولم يعد لدى الآن إلا أن أرجع إلى أشعار العرب ،
فأقطعها معتبرا الحرف الساكن آخر المقطع ، وأماثل بين المقاطع ،
فيكون من نتيجة ذلك ضابط للشعر العربى . قال الخليل ذلك ،
وأمعن النظر فى أبى المعلى ليرى أثر هذا الكلام فيه ، فوجده

ساكنًا صامتًا . فقال له : مالك لا تنبس بينت شفة ؟ قال : إن
ما تذكره بعيد عن فهمي ، عظيم على ذكائي ، ولا أدري
ما تقول ؛ على أني واثق من أنك وجدت أمرًا لو نجح لأنت بما
يفوق قواعد النحو وأصول اللغة . فهل أنت على ثقة من حسن
النتيجة ؟ قال الخليل : الحق إنني كمن وجد مفتاح دار لا يعرف
ما فيها ، وقد يجد فيها ما يطلبه . وقد لا يجد ؛ وقلبي يحدثني بأن
فيها ما أطلب .

انكب الخليل على عد مقاطع الشعر وحصرها ، وهو أمر
صعب مشقت طويل ، ولكنه لم يكن على ذكائه بمسير . وجده
بعد إعمال الفكر ، فتم له كشف ميزان الشعر .

الفصل العاشر

ماذا حدث بعد ذلك . يا المصيبة ! هذا عبد الرحمن ابنه يخرج
 من الدار ، وهو يلطم خديه ، ويركض على غير هدى ، ويصيح
 بكلام غير مفهوم ، فيستوقفه الجيران ، ويهدثون روعه ، ويسألونه
 عما به . فيقول وهو يبكي ، ويجهش بالبكاء : جن أبى ، جن
 أبى . ثم يعود إلى بكاء أمر يفتت الأكباد : لقد جن أبى ، قد
 ضاع عقله . يا للهول يا للمصيبة ! ويصرخ أحد الجيران : وا أسفاه
 عليك يا خليل . إن كثرة الذكاء تقرب المرء من خلل العقل ؛
 ماذا تنفعك اليوم تلك النباهة وذلك الذهن الوقاد ؟ ويصيح
 الغلام : وا أبتاه ! وامصبتاه ! . وتتفطر نفوس الحاضرين أسى
 وحزناً . ويقول بعضهم : كفى بنا اضطراباً ، هلموا ننظر فى الوجه
 الذى نسغه به . هلموا ادخلوا الدار . ويدخلون الدار ، فلا يرون
 من الخليل إلا قامته ؛ أما رأسه فقد أخفاه فى فوهة بئر عنده .
 ويسمعونه يصرخ أقوالاً لا معنى لها ، وهو يكررها ، ويقتربون

منه فيرون رأسه وقد تدلى في البئر منفوش الشعره . ولا يحس
الخليل بوجودهم بالرغم من ضجعتهم وكثرتهم . فيتقدم إليه أحدهم
ويقول : يا أبا عبد الرحمن إصح إلى نفسك ، وأخرج رأسك
من البئر ، فليس ذلك بنافعك شيئاً . فيرفع الخليل رأسه ،
وينظر إليهم نظرة المتعجب المختار . ثم يقول وقد ساءه التفاهم
حوله وتكاثرهم عليه : « ما لكم يا هؤلاء ، وأى خطب جلال
جمعكم ؟ » فيقولون : هدى بالك يا أبا عبد الرحمن ،
ولا تسوءك رؤيتنا . فيهدى نفسه ، ويقول بلطف : هل دهاكم
أمر أستطيع دفعه عنكم . فيقولون : لا ! لكننا نريدك على أن
تهدى أعصابك ، وتريح نفسك . فيقول : ولكني بأهدأ
حال وأحسن راحة ؛ فأخبروني بأمركم ، فيتشجع أحدهم ويقول :
إن ابنك ظن أنك جنت ، فخرج يصيح ويستغيث ، فحسنا
لنطمئن عليك . فيعض الخليل على نواجذه ، ويحار كيف يفسر
لهم الأمر . ثم يعول أن يكشف اختراعه ، فقد آل إلى نتيجته
التامة التي كان يتوقعها . فيقول ببساطة مزجت بشيء من البهجة :
كثير ما خشيت على الشعر العربي ، فقد وجدت الأعاجم يقدحون
عليه ، ورأيت من الشعراء المولدين من يدعو إلى الخروج على

منهاجه ، فعرفت أنهم سينتهون إلى وزنه فينتقدونه ، ويطلبون
 تعديله ، ويدعون أنه لا يقوم على أصل ، ولا يرجع إلى ميزان ،
 وقد يقولون إنه رغبة قوم بدولا أذن موسيقية لهم . خشيت
 ذلك ، وكنت مؤمناً بأن الشعر العربي كالنحو ، له قواعده
 وضوابطه ، بل لعلمه أقوى في ذلك من النحو . فصرت أعمل
 الفكر لإيجادها ، وعكفت على ذلك حيناً طويلاً حتى وفقني الله
 وما كنت عليه الساعة هو اختبار صحتها ، كنت أقابل قواعدي
 على مقاطع الشعر ومقاطع الشعر تظهر واضحة في الصدى الذي
 تحذته البئر . يقول ذلك ويحيلهم إلى يوم معهود ، يكشف فيه
 عن تلك الأصول بالمسجد الجامع بملاً من الناس ، فيعجب
 الجيران ويسر ذوو العلم منهم . وينظر الخليل إلى ابنه نظر الأسف
 الحزين ، يأسف على أنه منى بولد لا عقل له ولا فهم عنده ،
 ويحزن على ذلك الولد الذي أضاع خير ما في الحياة بضياع عقله ،
 ثم يقول بلهجة الحزين الأسف يخاطبه :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
 لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك
 هرع العالمون والمتعلمون إلى المسجد الجامع لسماع شرح ذلك

العلم الجديد الذى أبدعته قريحة الخليل ، وكانوا بين مصدق ومرتاب . أيقنوا أن الخليل لا يدعى هراء ، فليس أصدق منه بالبصرة ، ولم يعهد عليه الكذب قط . وعجبوا من الشعر العربى بضبط بعلم وقواعد ، فتى كان الشعر - وهو يخرج من الشعور ، ويمت إلى الذوق - ينطوى على ميزان واضح وأصول ثابتة ، وظن أكثرهم أن الخليل واهم ، وأنهم سوف ينقضون أقواله ويعلمون حججه . ولما التأم المجلس افتتحه الخليل باسم الله ، ثم صار يحمد الله على أن وفقه بهذا العلم الجديد الذى دعاه بالعروض ، لأنه يعرض الشعر عليه ، فإن كان صحيحاً تبينت صحته وإن كان مكسوراً ظهرت علته . ثم قال :

لقد كشفت عن سر الشعر العربى وضبطه ، فلن يقع فيه خلل بعد اليوم ، وهؤلاء المولدون الذين أطلقوا أنفسهم لقول الشعر ، وليس عندهم من الطبع العربى والأذن العربية ما يخولهم الصحة ، لن يستطيعوا بعد اليوم أن ينقضوا ميزان الشعر العربى ، وأن يدعوا أنه ليس له ضابط ، وأن من حقهم ألا يتقيدوا بأقوال رواة الشعر وحفاظه ، أولئك الذين ينسبونهم إلى الخروج عن ميزان الشعر ، دون أن يفسروا لهم سبب خروجهم . أيها

الناس ! ان يستطيع إنسان بعد اليوم أن يقول غير الشعر فيدعى أنه شعر ، لأن سبيل اقناعه بخطئه أصبح بسيطاً غاية البساطة . أيها الناس ! لقد برهنت أن العرب الذين ينسب الشعريون إليهم الجهل والخلل يتكلمون عن سجية لها أصولها المضبوطة ، لا يخرجون عنها ولا يحدون . ألا أيها العرب اعتزوا بشعركم ، وفاخروا الأمم بموسيقاه وحسن ضبطه .

قال ذلك وأخذ يشرح مادته بأسلوب سهل وطريقة واضحة . وكان يعرف أن المجتمعين لن يفهموا من شرحه إلا قليلاً ، فكان لا يطيل عليهم وكان يؤكدهم أن تفرعاته وضبطه تسرى على كل الشعر العربي جاهلياً وإسلامياً ، والناس ينظرون إليه مفتونين مختارين . إنه كلام حسن صحيح ، ولكن الدعوى كبيرة . وما كاد أبو عبد الرحمن ينتهي من شرحه ، حتى قام من الحاضرين رجل فقال : إن كان كلامك حقاً ضبطت لنا بميزانك معلقة امرئ القيس ، فبادر الخليل إلى وزنها وإخراجها وضبطها ، فصاح الحاضرون : الله أكبر . وأسرع أحدهم فأعطاه بيتاً من الشعر يطلب حصره ، فحصره له الخليل ، ثم انهالت عليه الأشعار وهو يحصرها . وتكاثر الناس وتوسعت

الحلقة ، وكانت صيحات الإعجاب تتعالى ، ولا يتمالك المجتمعون
 من تكبير الله على ما رزق البصرة من هذا العلم العجيب بهذا الرجل
 الفريد . وبعد اختبار واسع لهذا العلم ، انقضت الحلقة ، والتف
 الناس حول الخليل يهتفونه بعلمه وإبداعه . وخرج عالمان من
 الجامع ، وهما يتحدثان بهذا الاختراع . قال أحدهما : « هل
 صدقت ما سمعت أذنك ، ووعت عيناك ؟ » فأجاب : « إني
 من أمرى لني عجب وحيرة . الحق أن ما أتانا به أبو عبد الرحمن
 توفيق من الله عز وجل ما بعده توفيق . إني رأيت المتكلمين حين
 يضعون قياساً ما ، يطربون فرحاً به ، ويصفونه بالتوفيق والالهام ،
 ووجدت الفحاة إذا اكتشفوا قاعدة نحوية ، ظنوا أنهم بلغوا
 ذروة العلم ، فصفقوا وطربوا ، وألفت أصحاب الرأي والفقه ،
 إن صدق قياسهم ، شادوا به وأذاعوه وصفقوا له ، وشاهدت
 أصحاب كل علم يسعون وراء اكتشاف بسيط يفتخرون به . أما
 صاحبنا أبو عبد الرحمن ، فهو يضع علماً كاملاً مستوفياً ، ثم
 يقف بين الناس على غاية من التواضع ، فيشرح لهم علمه ، فلا
 تخرج منه كلمة فخر أو أعجاب ؛ وكأنه يشرح أقوال غيره ، حتى
 إذا اعترض معترض ، لم تأخذه الحمية ، ولم يلهبه التحمس ، بل

أجاب ببساطة ودعة ، فمنع الاعتراض . يا أخى إن هذا الرجل
فوق الرجال ، ولم ير الرأون مثله . قال الآخر : « إني بحثت
قبل موعدنا اليوم فى أقوال الاخباريين والرواة عما يصح أن
يتخذ مشرعا يشرع منه الخليل ، فوجدتهم يذكرون بعض
صفات القافية ، ويسمون نوعاً أو نوعين من البحور ، دون أن
يذكروا شيئاً عن أوزانها . وذلك كل ما قالوا عن ضوابط
الشعر ، وإذا بالخليل يبدع مادة واسعة متسقة ناضجة كاملة لعلم
يرفع به العرب رؤوسهم . لقد سمعت بعلم ليونان يدعونه بالمنطق ،
يعرفون به صحيح الكلام من باطله ، وقوى الرأى من ضعيفه .
وضع هذا العلم أرسطاطاليس ، وتوالى تلاميذه على تكميله
وتوسيعه . غير أن صاحب العقل السليم يدرك ضوابط هذا العلم
من نفسه ، ويعرفها بالقريحة ، ويقررها دون جدل . وأرى
صاحبنا أبا عبد الرحمن قد فاق أصحاب المنطق وبذمهم ، فلم يكن
العقل يهذى إلى خطأ الشعر ، ولم يكن أحد يستطيع البرهان
على صحة وزن بيت أو خلاف صحته . يجتمع الرواة فيقولون إنه
صحيح ، فلا نستطيع أن نفهم منهم لماذا ، ويأتى الخليل ، فيضع
لك قواعد تامة يجريها أمامك ، فتقنع بها عقلاً وتذوقاً . ألا إن

الخليل وحيد الدهر وغاية العلماء « قال الآخر : « حكى لى رجل
تزوج إلى جيران الخليل ، فأقام عندهم ، قال : سمعت الخليل
يقرأ القرآن شطراً كبيراً من الليل ، فسألت عن ذلك أهل
زوجتى ، فقالوا ما عرفناه إلا كذلك ، وإنه ليغيب فى حج
أو غزو فنتوحش له . كذا ذكر لى ، وإنى لأرى أن الله أنعم
عليه من العقل والتقى والصدق ما لم ينعم به على أحد ، اللهم إلا
على أنبيائه المخلصين .

أتت الأيام التالية ، والطلبات تنهال على الخليل فى تعليم علم
العروض . ولم يمتنع الخليل عن الإجابة . وقف نفسه حيناً
طويلاً من الدهر على تعليم علمه وإفهامه للناس . وكان ممن تردد
إليه ، يتلقى العروض الأصمعى الراوية المشهور ، فشرع الخليل
يشرحه له ، والأصمعى لا يفهم ما يقول . وأعاد الخليل الكرة ،
فامتنع الفهم أيضاً على الأصمعى ، فلم ييأس الخليل ، وعأوده فى الأيام
التالية ، ولكن الفهم استعصى عليه ، حتى يئس الخليل ، وتأذى
بتعبه الذى يلقاه من التعليم ، دون أن يكافأ بفهم الطالب ،
وكان يعز عليه أن يبعده عنه ، ويقطع تلقينه إياه بقول لعل
الأصمعى يتألم منه . ولا ريب أن غير الخليل كان يصعب عليه

إيجاد وجه أديب في التوقف عن التلقين ، أما هذا العبقرى فما
أسهل ما يجد طريقه إلى ذلك : قال له : يا أبا سعيد ! كيف
تقطع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
فأنشأ الأصمعي يقطع هذا البيت دون جدوى ، حتى إذا أتى
به الخليل على آخره ، استأذن وخرج ، ولم يعد بعدها إلى
العروض . ما أطف هذه الإشارة وأرقها ، وما أسرع فهم
الأصمعي بالإشارات وأثقله بالعروض .

لم يقف الخليل عند اختراع هذا الفن ، بل بادر إلى جعله
سبيلاً لإبداع أنواع من البحور والشعر لم يعهدها العرب . لقد
امتلك مفتاح الشعر العربي بعروضه ، فصار حرياً به أن
يفتح به آفاقاً من الشعر مجهولة . استخدم العرب من التفاعيل
الثمان خمسة عشر بحراً ، مع أنها تعطى أكثر من ذلك بكثير
حين تجمع وتركب . وكذلك صار الخليل يركب منها بحوراً
جديدة ، ويخرج بها شعراً من وزن جديد / أخرج قصيدة على
فعلن أربع مرات ، فقال :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبئس لعمرك ما فعلوا

أبكيت على طلل طرباً فشجاك وأحزنك الطلل
وعمل قصيدة على فعان أربع مرات فقال :

هذا عمرو يستعفى من زيد عند الفضل القاضى
فانهوا عمراً إني أخشى صول الليث العادى للماضى
ليس المرؤ الجانى أنفأ مثل المرء الضيم الراضى

فاستخرج المحدثون من هذين البيتين وزناً سموه الخلع ،
وخلطوا فيه من أجزاء هذه وأجزاء هذه . وما أحدث
الاندلسيون من الموشحات ، وما يحدث فى المستقبل من أوزان
جديدة ، تلائم روح العصر ، وتدرج مع موسيقى الجيل ، يرجع
فضله إلى الخليل ، فقد اكتشف مفاتيح الشعر ، وأطلق للشعراء
استخدامها بما يقتضيه ذوقهم وتخرجه قريحتهم . والعروض فى
ذلك كالنحو ، ألا ترى أن علم النحو والصرف أخرج كلمات
وألفاظاً وجموعاً لم تنقل عن العرب ، ولم تسمع منهم ، كذلك
العروض أخرج وسيخرج أوزاناً تتفق مع الذوق العربى ،
وتجربى على أصوله ، وتنبتق من تقاعيله .

الفصل الحادى عشر

✓ هذا الرجل كان يقاسى مضضاً شديداً ، وضيقاً قوياً . خاف
 أبوه عليه بستاناً ، فصار يعيش بغلته ؛ ولكنه كان كريماً ،
 فسرعان ما تبدد الغلة ، ويضرب الفقر غائلته ، فتصبح زوجته
 طالبة الإنفاق عليها ؛ ويصبح ابنه متوجعاً ؛ وكانت الزوج
 والولد يحلمان الأب مالا طاقة له به من الاعنات والإرهاق ؛
 وهو صبور حمول ، حتى كان يغلق عليه بابه ، ولا يستقبل
 أحداً خشية إطلاع الناس على همومه ؛ وقد ذكر ذلك لتأليده
النضر بن شميل فقال : إني لأغلق على بابي ، فما يجاوزه همي .

وأصبحت البصرة ذات يوم ، وإذا بنخيول مطهمة تتجاذر
 شوارع البلدة ، فحمة تلفت النظر ، وعليها فرسان أنيقون ، يرتدون
 ألبسة فارسية زاهية . ويتسارع الناس إلى رؤيتهم ، ويتساءلون
 عن أمرهم ، فيقول قائلهم : « إنهم من الأهواز وأيم الله ، فقد

رأيت أصحاب الأمير هناك، وهم يرتدون هذا الضرب من اللباس .
ولا جرم أنهم أتوا يحملون هدية إلى أميرنا .

وتسير الفرسان وراء دليل يشق الطريق أمامهم ، ولا يلبثون
أن ينحرفوا عن قصر الأمير ، ويتجهوا وجهة أخرى ، حتى
يدخلوا حتى الخليل بن أحمد ، ويقتربوا من بيته . فينزل الدليل
مسرعا ، ويبادر إلى باب الخليل ، يطرقه طرقا مستعجلا ،
يشير به إلى عظم ما أتى به . فيخرج ابن الخليل عبد الرحمن ،
ويتأمل الدليل والفرسان والخيول ، فيصيبه الوجوم ؛ فهو لم يكن
يرى بين زائري والده إلا متعممين ومتطيلسين . ويعجل الدليل ،
فيقول له : « هيا أخبر والدك أن أمير الأهواز بعث إليه رسولا
من كبار أصحابه » . فيدخل عبد الرحمن على والده ، وكان يلقى
درسا على طلابه ، ويقول له مسرورا مستعجلا مرتبكا : « قم
يا أبتى ، فقد أتانا الخير ، وذهب الفقر . هذا رسول أمير فارس
يأتى بأبهة عظيمة إليك موفدا . وقد رأيت من خيوله وتابعيه
ما لم تر عيني قبل اليوم » . قال الفتى ذلك متوقعا لقوله أثرا
عظيما عند والده . غير أن هذا لم يبد كبير اهتمام ، ولم ينهض ،
بل قال : « دعه يا بني يدخل إلينا » ؛ فنظر عبد الرحمن إلى

والده بدهشة عظيمة وخيبة أكبر؛ ثم لم يربداً من تنفيذ أمر والده، فخرج يقول للدليل ومن معه: أهلاً بكم، أدخلوا بترحاب؛ فينزل الرسول متثاقلاً، وقد خاب ظنه بحسن اللقاء ومزيد الحفاوة، ويدخل داراً بسيطة متواضعة، فيزداد عجباً؛ وقد كان يعتقد أن من أرسل إليه رئيس من رؤساء المدينة كبير. وينتهي إلى مجلس الخليل، فيمقلقه هذا بالبشاشة والترحاب، ويدعوه إلى الجلوس وأصحابه؛ ثم يعود إلى درسه ليطمه، فيرى له الرسول من هيبة العلم ووقار المجلس ما يدفعه إلى أن يطرق الرأس باحترام، حتى ينتهي الدرس.

أما عبد الرحمن، فيقف إلى الباب، وقد شده بصره، وهو يتنقل بين ملابس الفرسان المزركشة وسيوفهم اللامعة؛ ولا يمتد نظره بعيداً، حتى يرى أحد الفرسان، وقد ألقى بين يديه بصندوق مرصع، فيتساءل عما في هذا الصندوق، وينطلق به الفكر إلى سوق البزازين حيث رأى لباساً شديداً أطال النظر إليه، وتوهم أن يكون لوالده من المال ما يسعف بشراء ذلك الثوب.

يفرغ الخليل من الدرس، فيلتفت مرحباً بضيفه مرة أخرى،

يؤانسه ويسأله عن حال صاحبه ، فيقول الرسول : « إن مولاي
الأمير سليمان بن حبيب المهلبى — أعزه الله — الذى تجمعك
بالقربة به قبيلة بنى أزد ، قد أقر على فارس والأهواز ؛ تلك
الأصقاع الكبيرة ذات الخيرات العظيمة التى فيها كانت خزانة
كسرى وعاصمة ملكه ؛ وقد أقام مولاي الأمير فى قصر عظيم
فخم ، وحفت به الأمراء والقواد والفرسان ؛ واجتمع إليه العلماء ،
وجلس على بابہ الشعراء . وقد بحث عن أديب يلزم مجلسه
ويناديه ، ويؤدب أولاده ويعلمهم ، فلم ير أليق بذلك منك .
وقد أرسلنى لأحملك إليه مكرماً معزراً ؛ ولم ير مولاي الأمير
— أعزه الله — أن يوفدنى وهؤلاء الفرسان دون هدية ؛
فأنعامه غزيرة ، وخيراته عجيبة ؛ وبلغت إلى الفارس الموكل
بالصندوق ويقول : اقترب بما معك ، فرفع هذا صندوقه ،
ويضعه أمام الخليل ويفتحه ، فيقول الرسول : هذه مائة ألف
درهم ، أرسلها إليك مولاي الأمير على سبيل الهدية المستحبة ،
وقليلها كاف لتجهيزك إلى حضرته على خير مثال .
نظر عبد الرحمن إلى الدراهم ، وهى بيضاء ناصعة تلعب أمامه ،
فسأل لعبابه ، وانفجرت عيناه ؛ وبهر بها تلامذة الخليل ،

وعلت بعضهم ابتسامة الفرح بما الخليل حرى بأن يهبهم منها ، وهو الذى يشاطرهم ماله مهما قل .

أما الخليل فينهض متثدأ ، ويذهب إلى خزانة فى البيت ، ويخرج منها شيئاً صغيراً يحمله فى يده ، ويعود به إلى مجلسه ، ولا يستوى قاعدآ حتى يقول : « رأيت هذه الكسرة من الخبز ، إنها زادى الوحيد ، ولكنها كافية لسد رمقى ، وما دام عندى منها ، فلست بحاجة إلى سليمان . أما هذه الدراهم الكثيرة ، فعند الأمير من الشعراء من هم بحاجة إليها ، فليردها عليهم . »
 ما سمع عبد الرحمن ذلك ، حتى اضطرب واكفهر ؛ وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلام وقف فى حلقه ، فصار يتأنى بما لا يفهم .
 أما الرسول فما صدق ما سمع ، وعاد إلى الخليل يستفهم منه ، فقال له : لقد كفانى الله بهذا الخبز عن الرحلة إلى أميرك ، وهذا جوابى . وكان ذلك كلاماً لا التباس فيه . فاحمر وجه الرسول ، وأدرك أنه أخفق فى مهمته إخفاقاً مريعاً ما كان يتوقعه ، فحاول أن يقنع الخليل ، فصار يصف له قصور فارس وجمال بنيانها وحسن طبيعتها وكثرة خيراتها ولطف الأمير وظرف حاشيته ، دون أن يثنى الخليل عن عزمه ، حتى عرف الرسول

أن لا أمل بإقناعه، فأمر الفارس الموكل بالمال أن يرفعه ؛ فأغلق
 هذا الصندوق ، وانقطعت الفضة عن اللعان ، فكادت عين
 عبد الرحمن تخرج من صدغيه معها . وحمل المال وأخرج من
 البيت ، والخليل لا يعير ذلك التفاتاً . ثم إن الرسول تقدم
 إليه ، وقال له : بماذا أجيب مولاي الأمير ، وماذا أقول له نقلًا
 عن لسانك ؛ فقال :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سخطا بنفسى أنى لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
 هذا ما تنقله إليه بالحرف الواحد . فاستأذن الرسول ، وهو
 يتعثر بخيبة أمله ، وخرج يقول : ما هذا إنسان كما رأيت .

نظر طلاب الخليل إلى أستاذهم نظرة حيرة ، فيها العجب
 والإجلال والأسف والحسرة . إن شيخهم لأعظم الناس وأحرامهم
 بالإجلال ، وما فعل أمامهم أكبر من أن يصدق . وأطرقوا
 الرأس بين يديه ، وانتظروا أن يأذن لهم بالخروج ليذهبوا ،
 فيتحدثوا بالبصرة عن أعجب ما رأوا وسمعوا ، وعن أجل
 الناس وأرفعهم .

أما عبد الرحمن ، فانطلق إلى أمه يخبرها بما وقع ، وهو لا يستطيع كتمان بكائه . فما سمعت كلامه ، حتى أقبلت على زوجها مكفهرة الوجه مشجبة الأعصاب ، وقالت ، والكلام يتعلم في فيها : ماذا أصابك يا صاحبي ، حتى رفضت مالا أذاك يسعى إليك . أجننت أم صرت تفضل الموت على الحياة . أنسيت أنك أب وزوج ، وأننا لا نجد من الطعام إلا ما لا يسد حاجة . أنسيت ثيابك المرقعة التي تصفر بها منزلتك في أعين الناس . هذا ولدك يبكي كل يوم على كسوة يطلبها ونعل يبغيه ، وأنت تعد وتؤجل ، وتنتظر الفرج وتؤمل ، حتى إذا جاءك الفرج ، ضربته برجلك ، ودفعته بيدك . ثم طفقت تبكي وتشهق ، وجلس ابنها إلى جانبها يعلو عويله عويلها . ونظر الخليل إليهما نظر المشفق الحزين ، فسالت دمعة من عينه أسفاً على نفسه منهما ، وعليهما من عدم فهمهما لقصده .

وخرج إلى شأنه ، وما ذهب بعيداً حتى ألقي صديقه أبا المعلى ، فحياه تحية من يريد أن ينسى ما حدث . ومشى معه إلى حيث يجلسان عند قصر أويس ، ينعمان النظر بجمال الطبيعة وما استقر بهما المجلس ، حتى قال أبو المعلى : لقد دوت البلدة

بخبر الرسول الذي أتاك من عاهل الأهواز ليحملك إلى فارس ،
 ومعه مائة ألف درهم . وقد ذكر الناس بالدهشة ردك الدراهم
 ورفضك الرحلة ، فهل صحيح ما يدعون ؟ قال : نعم ، كان ذلك .
 فقال أبو المعلى : فعلت ذلك يا أبا عبد الرحمن ، وأنت أحوج
 الناس إلى المال ، وأحقهم به ؛ فامعنى فعلك ، وهل يأمرك
 زهدك أن تدع أهلك يرتعون في الفقر ؟ قال الخليل : « كفك
 يا أبا المعلى . هذا كلام من لا يفقه ما يقول . أتعذلى على أنى
 رفضت مالا لم أفعل شيئا أستحقه به ، أو تلومنى لأنى أربأ
 بنفسى أن أكون عبداً لأمير ، يظن العظمة في الحكم والعز
 للمال والقوة لصاحب الجند . أترانى عائشاً في القصور ، منقطعاً
 إلى تعليم غلام أو غلامين للأمير ، رهن الإشارة ، عبد الأمر .
 أترى هذا العلم الذى أحمله يصير ملكاً لأمير ، يأخذ منه ما يشاء
 ويدفع منه ما يريد ، يجعله سبيلاً إلى التفكه ، وواسطة للتسليمه
 يحصره لديه ، ويضن به على غيره . يا صاحبي ! لست أزهد في
 المال لأنى أكره النعمة ، ولكنى أريده خالصاً من العبودية ،
 صافياً من دنس التحكم ، حقاً لا مماراة فيه ، وأجراً لا بد منه .
 يا صاحبي ! لن أبيع علمى وعزتى وعقلى بالمال مهما كثر ، وإن

أكون عبداً إلا لخالق». قال أبو المعلى: «يدهشني أن يكون في الناس من ينظر إلى الحياة نظرتك». قال: بل أحق بك أن تعجب من أنهم لا يسيرون في الدنيا سيرتي. قال أبو المعلى: إن الذي يؤسفني أنك قلت شعراً للأمير تقطع فيه عليه سبل استمراره على إرسال الراتب الذي خصك به منذ زمان مكافأة لك على علمك. قال: إنه إن منعه لم يمنع عزيزاً.

مضت الأيام، والخليل يزداد فقراً إلى فقر، حتى أتى الحين الذي يصل فيه راتب سليمان، فبلغ الخليل أن الأمير ساءه جوابه، فأمر بقطع الراتب عنه وسار الخبر في المدينة، فصار الناس يستفسرون من الخليل عن جلية الأمر، فيخبرهم بحقيقة ما حصل، وينشد لهم شعراً يخاطب به سليمان قائلاً:

إن الذي شق في ضامن لي الرزق حتى يتوفاني
حرمتني مالاً قليلاً فما زادك في مالك حرمانى
وسارت الرواة تحمل هذا الشعر وتنشده، حتى بلغ الأهواز، وطرق سمع الأمير، فأقامه وأقعدته، وخاف على شهرته من رجل يحترمه الناس ويبجلونه. ويرفعون قدره ويصدقونه، فكتب إليه يعتذر، وأمر بأن يضعف راتبه؛ فلم يزد الخليل هذا العمل

احتراماً لسليمان ، وعرف قصده فقال :
 وزلة يُيكتر الشيطان إن ذكرت
 منها التعجب جاءت من سليمان
 لا تعجبين لخير زل عن يده
 فالكوكب النحاس يسقي الأرض أحيانا
 فوبخه أبو المعلى على قوله هذا ، وقال له : لقد استغفر سليمان
 لذنبه ، فما بالك تقسو عليه . فقال يعنى نفسه :
 صابُ الهجاء على امرئ من قومنا
 إذ حار عن سنن السبيل وحادا
 أعطى قليلاً ثم أقلع نادماً
 ولربما غلط البخيل ————— ل فجادا
 فقال أبو المعلى : وإن تعف وتصفح هو أقرب للتقوى . قال
 الخليل نعم القول الذى تعظنى به ، وسكت عنه .

الفصل الثاني عشر

سما مقام الخليل بين الناس في البصرة وغير البصرة ؛ وصار
الناس يقصدونه من القريب والبعيد ، يستفيدون من علمه ،
ويخبرون ذكاه ؛ وهو لا يمتنع على إنسان ، بل يبش في كل
الوجوه ، ويتواضع مع الكبير والصغير . وكان أهل البصرة
يتخذونه صاحباً وأباً وراشداً ودليلاً ، وكان هو يهتم لهمهم
ويفرح لفرحهم .

حدث أن مات كحال كان يعمل للناس دواء ينفعهم لغشاوة
البصر ، وتضرر الذين كانوا يستعملون هذا الدواء ، وصاروا
يطلبونه ، فلا يعرفون له اسماً ، ولا يدرون تركيبه . ولما
كثر تشكيهم من ذلك ، اجتمعوا يتداولون أمرهم ، فقال قائل
منهم : لم يعد لنا إلا أن نلجأ إلى أبي عبد الرحمن الخليل ، فهو
بذكائه وعلمه قد يجد لنا هذا الدواء ، مهما كانت أخلاطه كثيرة
فهلما بنا إليه لنقص عليه قصتنا . وأجمعوا أمرهم ، وذهبوا إليه ،

فشكوا ما يجدون ، فساءه حالهم ، ولم يكن كحالا ليصف لهم دواء غيره ، فماذا يفعل ؟ قال : هل كان للدواء نسخة ذكر بها أخلاطه ؟ قالوا : لا . إنما كان يحضره لنا بنفسه . قال : وهل تعرفون الآنية التي كان يجمع فيها الأخلاط ؟ قالوا : نعم ، وأحضروها له . قال راوى القصة محمد بن الفضل — وهو من أعيان الناس — : جعل الخليل يشم الإناء ويخرج نوعاً نوعاً ، حتى عرف خمسة عشر نوعاً . وسواء أصدقنا أنه وجد هذه الأنواع بهذا الأسلوب أم لم نصدق ، فقد وجدها بهذا أو بغيره ، مما يكفله ذكاؤه وجده ؛ ثم سأل العطارين أن يصنعوا دواء يجمع هذه الأخلاط فصنعوه . فإذا هو الدواء المطلوب ، فسر المحتاجون إليه ، وصاروا ينتفعون به كما كانوا يفعلون قبل وفاة الرجل . ثم وجدت نسخة في طيات كتاب من كتبه ، ووجد فيها ستة عشر خليطاً ، ووجد أن الخليل أغفل منها خليطاً واحداً .

استعظم الناس هذا الأمر ، وتحدثوا به زمناً طويلاً ، وسارت الركبان بأخباره ، ولعلمهم زادوا فيه شيئاً أو أشياء . وصار

الرجل يشار إليه بالبنان في كل حضر أو سفر ، فيقال : هذا الخليل ، أذكى الناس وأصفاهم ذهنًا وأحسنهم قريحة .
أما هو فكان يعاني من ولده الأمرين ؛ كان ولده أحق متخلفاً لا يفهم ، وعنيداً لا يستكين .

جاء شاعر يزور الخليل وجلس عنده ، وكان عبد الرحمن حاضراً ، وعرضت حاجة لل خليل فقال لابنه : قم وأحضرها . فقال ابنه : لا أقوم . فقال : إذا لم تقم فاقعد . قال : لا أقعد . قال : فأى شيء تصنع ؟ قال فأى شيء أصنع . وضحك الشاعر ، وقال : إن لك أن تتعزى فابنك ليس وحيداً في ذلك . إن لي امرأة تشابهه ، وقد قلت فيها شعراً ، ثم أنشده :

سكتُ فقالت لم سكتَ عن الحق

وقلتُ فقالت من دعاك إلى النطق

فأومأت هل من حالة بين ذا وذا

فقالت : وذا الإيماء أيضاً من الحق

فلم أر لي إذ حلت الغرب راحة

من الشر إلا بالهروب إلى الشرق

فلما أتيت الشرق ألفتها به

وقد قعدت لي منه في أضيق الطرق

فضحك الاثنان ، وضم عبد الرحمن شفته السفلى إلى العليا
وأبرزها إلى الأمام احتجاجاً وأنفة .

الفصل الثالث عشر

سار ذكر الخليل في العالم ، وتفأخر العرب به على العجم وبلغت أخبار ذكائه بلاد الروم ، وتحدث بهذا عربى في مجلس ملكها ؛ فقال له الملك ، إن أصدق ما ذكرت حتى أمتحنه ، وفكر رويًا في الأمر ثم قال : أكتب إليه كتابًا بلغتمكم ، وضع فيه ما تشاء ، وسأرسله إليه لأرى هل يفهم مافيه ، وقد غيرت بعض شكله . فكتب إليه العربى كتابًا ، وأعطاه الملك إلى رجل ينقله بنصه العربى في الحروف اليونانية القديمة التى لا يعرفها إلا القليل من المتبحرين فى اليونانية ، فنقل إليها ، ثم أرسله الملك إلى الخليل ، ووفى رسول الملك أبا عبد الرحمن وقال له : هذا كتاب بالعربية من فلان العربى إليك ، فاقرأه ، وإنى بانتظار الجواب لأرحل به . فأخذ الخليل الكتاب ، وأعطاه إلى أحد الحاضرين ليفضه ويقرأه ، فأخذ هذا ، وظل يمعن فيه وهو يقول : إن هذا الكتاب ليس بالعربية أبدًا ؛ فيقول الرسول : بلى إنه بالعربية . ويتناول الخليل الكتاب ، فيدرك

أن في الأمر امتحاناً له ، فيقول للرسول : انتظرني حتى أكتب
الجواب ، ويخلو بنفسه مدة ، ويخرج وقد نقل الكتاب إلى
الحروف العربية ، ويقراه على أصحابه ، ثم يريهم جوابه
بالحروف اليونانية القديمة ، ويقراه عليهم بها ، فيبهتون ويبهت
الرسول ، ويقولون : متى كنت تعرف اليونانية يا أبا عبد الرحمن ؟
فيقول لم أكن أعرفها ، وإني لا أعرفها حتى الساعة ، فيزدادون
تعجباً وحيرة ، ويقسمون عليه إلا فسر لهم الأمر ، فيقول : لقد
خلوت بنفسى ، وفكرت في أمر الكتاب ، وقلت لقد زلق
الرسول ، وادعى أنه بالعربية ، وكان حقاً عليه ألا يقول ذلك
لأن معرفتى بأنه بالعربية مفتاح السر ، إذ لا يبقى على إلا أن
استخرج لبعض الحروف اليونانية منه ما يقابلها بالعربية
فيناكشف الكتاب . قال كيسان ، وهو أحد تلامذته الخالفين :
أوتعد استخراج مقابل بعض الحروف اليونانية بالعربية أمراً
هيناً ، وأنت لا تدري من هذه الحروف شيئاً ؟ قال الخليل :
ويحك يا كيسان ! ولماذا أعطانا الله العقل والفكر ؟ أليس
لنستفيد منهما ، فنخرج بهما من المآزق التي لا ينفكش أمرها
بدونهما . قالوا : فماذا فعلت ؟ قال : قلت بنفسى إن صاحبنا

العربي في بلاد الروم قد كتب ولا ريب كتاباً على عادتنا وشرعنا،
فبدأه بكلمة نبدأ بها كل كتاب وهي « بسم الله الرحمن الرحيم »
فأخذت أول الكتاب ، وصرت أقابل حروفه بحروف « بسم الله
الرحمن الرحيم » حتى استخرجتها ، فعرفت من الحروف اليونانية
عشرة حروف مما يقابل حروفنا ، فصرت أتبع الحروف التي
عرقها في الكتاب ، فأعثر على كلمة أكثر حروفها مما أعرف ،
فاستنتج بالفكر بقية حروف الكلمة ، وقد عرفت أكثرها ،
فيزداد عدد الحروف التي أعرفها . وكذلك استخرجت كل
الحروف ، وكشفت الكتاب ، ونقلته إلى الحروف العربية ،
وليس ما فعلته بالأمر العجيب .

ويذهب رسول الروم إلى مولاه بجواب الخليل ، فيستحضر
الملك الكاتب بالحروف القديمة ، فيحل له الجواب ، فيجده
موافقاً للكتاب ، فيعلوا الرجل في عينه . ويستفيد الخليل من
هذه التجربة ، فينقطع زمناً لوضع كتاب في الأشياء المعماة
والرموز التي يصح أن تتخذ سبيلاً إلى تقوية الذكاء والاستنتاج
فيضع كتاب المعنى ، وينتشر بين الناس ، ويستفيد منه
كيسان ، ويبرع في حل الألغاز .

لها

الفصل الرابع عشر

كان الإبداع عند الخليل عملاً لا بد له منه ، يقضى فيه أوقات فراغه . ويتحدث به إلى نفسه ، ويطلق لفكره العنان ، وكأنه كان عنده راحة من مضض الحياة ، وسلوة يجلو بها النفس ، وأكاد أقول ألهية يلهى بها حدة ذكائه ، ويظهر منه فائض نبوغه . كان يسعى وراء الأمور التي لا بد فيها من عبقرية ومزيد فطنة ، فينكب عليها شغوفاً بها ، يستطلع منها آفاقاً جديدة لذكائه المفرط .

ها هو ذا يجلس إلى رجلين عكفا على رقعة أمامهما ، ينقلان قطعاً خشبية عليها ، فيتأمل هذه الرقعة ، ويسألها إيضاح أمرها ، فيعجبان منه كيف لم يعرف أنها الشطرنج ، أجمل ألهية يلعب بها ، وأحسنها تمريناً للذكاء ، وأصدقها اختباراً له ، فيقول إنه سمع عنها الشيء الكثير ، وأعجب بمخترعها الفارسي الذي أبدع شيئاً عظيماً من العدم ، ولكنه لم يتسن له أن يطلع عليها . فيشرع

الرجلان يتسابقان في تفسير حركة قطعها ، فيسر سروراً عظيماً ،
ويقول : ما أحسن ترتيبها ، وأعجب سيرها ، وأدهش حيلها .
لكن ما لهذه اللعبة حوت حيوانات القتال جميعاً ، ونسيت
أصبرها على العطش وأقواها على السير وأمدّها للمقاتل : نسيت
الجل الذي هو رفيق المحارب العربي وخادمه . قالاً إن مخترعها
لم يفكر فيه ، وأياً كان ، فهي كاملة تامة بترتيبها ، والعبرة بالجواهر
لا بكيفية الوصول إليه . قال : إني إن لعبت بها يوماً فلن ألبها
خالية من الجل ، فهو عندي أليق بها من كثير من تماثيلها .
قال ذلك ، ثم انطلق ذاهباً . ولعله كان يقول هذا على سبيل
الفكاهة والتمثيل ، غير أنه ما تجاوز بعيداً ، حتى انطلق فكره
في ميدان الشطرنج وفي حركة أبطاله ، وامتد به التفكير ، فإذا به
ينطلق خارج البصرة ، فلا يشعر بنفسه إلا وهو في الصحراء ،
والم يردّها . وكان لا يزال فكره مشغولاً بالشطرنج ، فيقعد على
رمال الصحراء ، ويخط عليها مربعاته ، ويتناول أحجاراً يمثل
بها الفتيين المتصادمتين ، ويوجههما للقتال ، ثم يتخيل الجل
بينها يعمل عمله ، ويؤدي مهمته . ولا يزال منطلقاً في بحر فكره
حتى يأتي المساء ، ويسود الصحراء بعض العتمة ، فيخف عائدًا

إلى بلده ، وهو لا يدرى أنه ابتعد عنها كثيراً . ولا يزال سائراً
حتى يلقى الظلام ثوبه المعتم على البرية ، ويكون الخليل قد وافى
ضواحي البصرة ، لكن أمامه درباً طويلاً عليه أن يقطعه حتى
يدخلها . ويخشى أن يلقى في طريقه سبعاً من سباع البرية ، فلا
يقوى عليه ، وهو أعزل حتى من العصا . ويذكر أن في أحد جانبي
الطريق صومعة لراهب انقطع فيها للعبادة ، فيجد أن خير ما يفعل
الالتجاء إلى ذلك الراهب أثناء الليل ، ويكشف عن طريق
الصومعة فيجده غير بعيد ، فيتجه فيه ، حتى يبلغها بعد أن يتساق
سائماً إليها ، يبعده عن خطر الطريق ، فيطرق بابها ، فتفتح كوة
من أعلاها ، ويظهر رأس الراهب منها ، وهو يقول : من أنت
يا هذا ، وماذا تريد ؟ فيقول : أنا الخليل بن أحمد الفراهيدي ،
وأمنيتي إليك السباح لي بقضاء الليل عندك ، فقد وافاني ظلامه ،
وأنا في طريقى إلى بيتي . وينظر الراهب إليه فاحصاً ، فيجد
رجلاً شعث الرأس ، مرقع الثوب ، فيقول : أنى لك يا هذا أن
تكون الخليل بن أحمد ، والناس يزعمون أنه واحد في العلم ،
وليس في العرب مثله . قال : إن الناس يزعمون ذلك ، وهم
مغالون . ولكن ما الذى يدعوك إلى أن تتهم صدق فى أنى

الخليل ؟ قال إن سيماءك الفقر والتشرف ، ولا أرى الخليل — وهو من يدعون — يتزيا بزريك . قال الخليل : عجيب من راهب مثلك ، يلبس المسوح ، ويرى الزهد والامتهان لأموال الدنيا ، أن يستكثر على الخليل — وهو يظن فيه الخير — احتقار الظواهر وامتهان التجميل . عجيب منك أن تريده كالطاوس ، يزهو بريشه وألوانه . قال الراهب : لن يخذعني كلامك الجميل البليغ هذا ، فأصدق أنك الخليل . لأنني عرفت في العرب طلاقة لسان وحسن بيان ، يتفق بهما العالم والأعمى منهم ، وما أصدق أنك الخليل إلا بعد امتحانك . إني سأثلك عن أمر أستدل به عليك ، قال الخليل : سل وعجل . قال : ألسنا نستدل على الغائب بالشاهد ، فلا نحكم بوجود الغائب ، إلا إذا كان حاضر يشهد به قال الخليل : أجل ، فالإنسان لا يعرف الخفي إلا بأثر شاهد يدل عليه . قال الراهب : أحسنت ، الخليل يقول إن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض ، فهل ترى شيئاً بهذه الصفة ، حتى تدعى هذه الدعوى : إنك لم ترقط ، أجبتني عن ذلك جواباً مقنعاً ، حتى أصدق بأنك الخليل . قال لك ذلك ، أني استدلت على الله تعالى بأفعاله الدالة عليه ، ولا مثل له ، وفي المشاهد

المعروف ، المعترف به ، المسلم بأمره ما يؤكد ذلك ، تعالى الله
عن المشابهة . ما قولك في الروح التي فيك وفي كل حيوان ،
ألا تحس بها ، وترى أثرها ، وتقر بوجودها ، وتدعوها باسمها ،
وتحاول تهذيبها ، ويبكي الناس لخروجها من عزيز عندهم ،
ويخشون زوالها عنهم . أتدرى أين مستقرها ، وكيف هي هيأتها
وصفتها ، وما هو جوهرها . هل تشعر بشيء يخرج من الإنسان الذي
يموت ، وأنت تقول إنها تفارقه حين يفقد الحياة ؟ إنك لاتدرى
ولا تحس بشيء من ذلك ، ثم تؤمن بوجودها ، وتدعى أنها
ليست جسماً كالذي تشاهده . وبعد ، فهذا شاهد تسلم به ،
واستشهد به في دعواي ، فافتح لي الباب لأدخل . قال الراهب
ذلك أول سؤال عرفت به شيئاً من حالك ، وعندى سؤال آخر ،
ينبئني بالكثير عنك ، وإنه لتابع للأول : الست تزعم أن الناس
في الجنة يأكلون ويشربون ولا يتغوطون ؟ قال : نعم ، قال :
متى وأين رأيت أناساً بهذه الصفة ، وأي شاهد لك على هذا
الزعم ؟ قال الراهب ذلك ، وابتمس ابتسامة الواصل من أنه أوقع
خصمه بما لا قدرة عليه . فأطرق الخليل هنيهة ، ثم رفع رأسه ،
وقال : الشاهد في ذلك قريب عجيب ، وهو أنت وأنا وكل

الناس . قال الراهب : يا للعجب ! أتهذر أم عجزت ؟ قال : كلا ،
وما أقول إلا حقاً ، فأنت وأنا وكل إنسان مر علينا قريب من
حول أكلنا فيه وشربنا ولم نتغوط . قال الراهب : متى وأين ،
قل ولا تعقد . قال الخليل : إن الإنسان قبل أن يرى هذا العالم
يبقى تسعة أشهر في بطن أمه ، وهو يتغذى منها دون أن يتغوط ،
وقد مررت بهذا الدور . ومررت ، ومر كل الناس . أفبعد هذا
الشاهد من بيان ؟ قال الراهب : أحسنت أحسنت يا خليل ،
صدق من قال إنك أذكى العرب وأوحدهم . قال الخليل : هل
آن لك أن تفتح الباب يا هذا ، فقد أظلم الليل ، وتعبت قدماي .
قال الراهب : لن أدعك تدخل حتى تبين لي الشاهد في أن
نعيم الجنة لا ينقضى مع أن أوله موجود ، فإني ما أحسب أني
رأيت أمراً له أول ، إلا وهو ينقضى ويزول . قال الخليل : لن
أذكر لك شاهد هذا الأمر ، إلا إذا وعدتني بفتح الباب فوراً
بعد الجواب ، فقد أطلت . قال : لك ذلك ، أي ور بي . قال :
هل تعلمت الحساب ؟ قال : نعم ، قال : عد لي . قال : ما شأن
ما نحن فيه والعد ؟ قال : لن ترى الجواب إلا به . قال : واحد
اثنين ، ثلاثة ، ومضى في العدد . قال الخليل : هل تستطيع أن

تقف على عدد ليس بعده آخر ؟ قال : إني مهما عددت فهناك رقم أعلا منه . قال : كذلك نعيم أهل الجنة ، له أول وليس له آخر . فبادر الراهب إلى الباب وفتحه ، واستقبل الخليل بين ذراعيه ، وقال له ، إنك لأوحد الدهر حقاً ، فادخل ولك عندي خير ضيافة .

لم يقطع الخليل ما حصل معه هذه الليلة عن إكمال الفكر بالشطرنج ، فما هو بالرجل الذي يكل ويمل في عمل قصده . وكان على من يقصد الاختراع في الشطرنج أن يلازم لاعبيه ، ويشاهد لعبهم ليستخرج من المشاهدة غايته . ولكن الخليل رجل فكر أكثر منه رجل مشاهدة وتمرين ، فسبيل المشاهدة والتمرين لا يقود بعيداً إلا بالصدفة ، أما العقل ، فسبيله أقرب ، وخياله أوسع ، ومادته أغزر . وبه وجد الخليل مكاناً لجملين من طرفي الرقعة يلعب بهما ، واستحسن الناس ما وجدوه ، فلعبوا بالجملين حيناً من الزمن طويلاً ، ثم تركوها في حين لعل القرينة خفت فيه ، والفكر ملّ التأمل .

الفصل الخامس عشر

ما زال الخليل منقطعاً إلى العلم وتعليمه ، ولم يكن يكتفى بأن يعلم المعارف والعلوم ، بل كان يريد في الوقت نفسه أن يعلم الأخلاق الحسنة والطباع الجيدة .

دخل أبو محمد اليزيدي على الخليل ، فوجد مجلسه منعقداً حافلاً ، والخليل جالس على طنفسة صغيرة في صدر المجلس ، والمهابة ناطقة على وجهه ، والناس بين يديه في حياء منه وإجلال له . فصار أبو محمد يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يبحث عن مكان يجلس فيه . فالتفت الخليل فرآه على هذه الحال ، فقال : إلى يا أبا محمد ، فنظر أبو محمد ، فما وجد مكاناً فارغاً بقربه ، فأشار إليه بطرف خفي : ليس لي مكان عندك ، وسأجد فراغاً أجلس فيه . ولكن الخليل عاد يقول : ههنا عندى يا أبا محمد . فقال هذا وقد ضاقت حيلته : أخاف أن أضيق عليك فقال الخليل : هلم ، فاقرب منه ، وهو منقبض ، فأخذ الخليل بعضده ، وقربه منه ، وأجلسه بحذاءه ، وقد وسع له ، ثم قال : «إن الدنيا بحذافيرها تضيق عن متباعضين ، وإن شبرا في شبر

لا تضيق عن متحايين» ، فجلس أبو محمد ، وقد سره وصف الخليل له بالصدقة والحب . وجرى هذا الكلام مجرى المثل . وانطاق الخليل يتكلم عن العلم والعلماء وفضلهم . فقال أحد طلابه : أليس المال أفضل من العلم ، إذ يجلبه ويسببه ؟ قال : كلا ، ما هو أفضل منه ، والعلم هو الذي يجلب المال ، ولا شيء يعدل العلم ويفضله . فقال : ولا الملوك والأمراء ؟ قال الخليل : لا الملوك ولا الأمراء ولا غيرهم يفضلون العلماء . قال : فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك ، ألا يعنى ذلك أنهم يلجأون إليهم ، ويعتقدون فضلهم وتقدمهم ، ثم ما بال الملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء بل يدعونهم إليهم بإشارة منهم لهم ، قال الطالب ذلك ، وقد شعر بأن حجته أقوى من حجة أستاذه ، وصار ينتظر ما الخليل قائل ، وإذا بهذا يقول : لقد عرف العلماء حق الملوك وواجبهم نحوهم في نصحتهم وهدايتهم ، فسمعوا إليهم ليرشدوهم ويعلموهم ، وجهل الملوك حاجتهم إلى العلماء وحقهم ، وظنوا أنهم خير منهم ، فلم يسمعوا إليهم ، فكان من ذلك خراب لأمر كثيرين منهم ، لم يسألوا أهل العلم فيما لا يعلمون . فأتى الطالب وانقطع ، وكتب الطلاب على ألواحهم هذه المحاور ، ثم انفض المجلس بهذا أو بمثله .

الفصل السادس عشر

لم يكن للخليل هوى غير هوى العلم ، اللهم إلا تعلقه بيازى
كان ينفق عليه ما يفضل عن قوته ، وكان كثيراً ما يخرج فيصطاد
به ، ويقوى بدنه وينشط فكره ، وقد يمتد به الصيد برفقته ،
فيقضى أياماً وهو بعيد عن منزله .

عاد مرة من صيد استغرق معه أمداً ، فوجد الناس
يتراكمون إليه ويخبرونه أن الشعراء بشوا عليه العيون
والأرصاد ليعثروا عليه ، وهم ما يزالون يبجشون عنه . وكان
الخليل حكمهم ورئيسهم ، فما استحسنه من أقوالهم اشتهر
وحاز القبول ، وما لم يستحسنه سقط . فعجب الخليل لأمرهم ،
وظن أنه وقعت بينهم منافرة يريدون رأيه السريع فيها . وما
وفاى البيت حتى رأهم ينتظرونه ، فخيأهم فاستقبلوه بلهفة ، فسألهم
عن أمرهم ، فقالوا مدحنا الأمير جعفر بن سليمان بن علي العباسي
بالقصائد التي كنها أعددناها قبل مسيرك ، ووافقت عليها ، فسمعها
ولم يتقدم إلينا بالجائزة ، بل ماطلنا بها ، فضاقت الأمور بنا ، وحاجتنا

إلى المال ما تعرف . فقال الخليل : أعطوني رقعة أكتب لكم
كتاباً عليها إليه . فأعطوه ما كتب عليه كتابه ، ولم يقرئهم
تلك الرقعة ، بل ختمها ووجههم بها ، فأوصلوها إلى الأمير ، فما
أنهى قراءتها حتى أمر لهم بجوائز حسنة ، وزاد في إكرامهم .
وتشوقوا إلى معرفة ما بالرقعة ، فالفوها بالديوان ، وإذا فيها .

لا تقبلن الشعر ثم تعقه وتنام والشعراء غير نيام
واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا حكموا لأنفسهم على الأحكام
وجناية الجاني عليهم تنقضى وحكومهم تبقى على الأيام
فعرفوا بذلك من الخليل حسن رأيه فيهم ، وقوة تسلطه على
الأمراء .

الفصل السابع عشر

اكتسب الخليل الرياسة بين العلماء والشعراء بحق ، وكان من رضى عنه حاز المنزلة العليا عند الملوك ، وأصاب الغنى . أما هو نفسه ، فما برح فقيراً . كان تلاميذه يعيشون في القصور ، ويمرحون بالخز والديباج وهو في بيت من خشب ، وثوب مرقع ليس في طياته فلسان . وكان مظهره ولين طباعه وتواضعه تخدع ذوى النظر القصير ، فيستطيون عليه بما لا يصح أن يجرى أمامه وإذا هو يعيدهم إلى حظيرتهم الدنيا بكلام يجرى مجرى المثل . ها هو ذا في مجلس ملتئم تطرح فيه عليه الأسئلة ، فيفيد بأجوبته ، وهذا هو رجل من فزارة جاهل أحق غبي يدخل فيأخذ مكانه من المجلس ، وكان قد سمع كثيراً عن الخليل وعن ذكائه ، فيرى شيئاً لا عهد له به ، فيجلس منصتاً . وإذا برجل يتقدم إلى الخليل بسؤال ويقول : سيدى الشيخ ! ما معنى قوله تبارك وتعالى : رب ارجعون . فيطرق الخليل ، ويبحث عن

الجواب فلا يجده ، فيقول : سألتوني عن شيء لا أحسنه ، ولا أعرف معناه . فاستحسن الناس منه تلك الصراحة ، ولكن الفزاري يستقيم هذا الجواب ، وتبدو على وجهه دلائل امتحان المجلس ، وينتبه الخليل إلى ذلك فيسأله على عادته مع الحاضرين مسألة ليصرفه بها عن موقفه ؛ فيبسط بالجواب محاكاة بالخليل فيعيد هذا السؤال عليه ، فيتضحك الفزاري ، فينتظر الخليل انقطاع ضحكك ، ثم يقول لجلسائه : الرجال أربعة ، فرجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فأسأله ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مائق جد أحق فافضوه . ثم يلتفت إلى الفزاري ويقول :

ومن أعجب الأشياء أنك مائق وانك لا تدرى بأنك لا تدرى وينظر أهل المجلس إلى الفزاري ، وقد تصبب العرق من جبينه فشرع يبحث عن الانصراف وهو يمتثر بأثواب خجله . وجاء رجل آخر يمتحن الخليل بمسألة ، فجعل الخليل يفكر وأطال التفكير ، وأبطأ في الجواب ، فأعجب الرجل بنفسه ، وقال للخليل

متفائراً متباهياً : لم تُسكّر الفكر والتأمل ؟ فليس في هذه المسألة من الصعوبة ما يستدعى إطالة النظر ، فقال الخليل : قد عرفت مسألتك وجوابها ، وإنما فكرت في جواب أسرع لفهمك ، فاتعبت نفسي بما قصدت إراحتك به . فحجل الرجل وانصرف .

عرف معظم الناس جليل قدر الخليل وحسن رأيه وقوة بصيرته ، فاعتمدوا عليه بما يخرج عن حد علمه وأبواب اختصاصه ؛ فكان بذكائه وقرينته يفيدهم بأكثر مما يستفيدون به من أهل الاختصاص . من ذلك أن الأمير عباد المهلبى اتخذ أرضاً أراها للخليل ، واستشاره بغرسها ، فأمعن الخليل نظره فيها وقال أغرسها وستنبت بمشيئة الله كل شيء بهيج . فعمل بمشورته وغرسها ؛ ورأى أصحابه — ممن كانوا يعرفون الفلاحة — هذه الأرض ، فلاموه على غرسها ، وخوفوه من الخسارة ، فصار ينتظر نتيجة أمرها ، وإذا هي تأتي بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخليل ، وهو مبتهج بها ، فسر الخليل بما فيها ، وقال شعراً فيها من أجود ما قيل في البساتين ومواضع الأشجار ، وأشار إلى لوم اللاتمين فيها فقال :

ترفعت عن يد الأعماق وانخفضت

عن المعاطش واستغنت بسقيها

فالتف بالزهر والريحان أسفلها

ومال بالنخل والرمان أعلاها

وصار يحسده فيها أصادقه

ولأنهم لام فيها قد تمنّاها

الفصل الثامن عشر

كان الخليل يحب النصيح والرشد ، ويدعو إليهما ، وينحو نحوهما ، وآل به الأمر في ذلك أن عقد مجلساً في المسجد الجامع ، يعظ فيه الناس ويهديهم سواء السبيل . وكان يكثر في مواعظه من عدم الاحتفال بالدنيا وزخارفها ، ويدل على حقيقتها وصواب أمرها ، فيقول من ذلك الحكمة التي تسجل ، والرأي الذي يبجل . كان ذات يوم قد جلس مجلس الواعظ ، والتف الناس حوله ، واكتظ المجلس ، والسكوت سائد ، وصوت الخليل يخرج مستقيماً ممتداً ، ليس فيه تدليل بفخر القائل واعتزازه بنفسه ، ولا استكانة للمتصوف الفارق في بحر التدوق . كان يقول : ما أغرب أمر الدنيا وأعجب شأنها ؛ الدنيا أشياء مختلفات اختلفت وتقاربت وتجاذبت ، الدنيا أشياء مؤتلفات اختلفت وتباعدت وتضاربت ، الدنيا أصداد متجاورة ، وأشباه متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأبعاد متقاربة . ألا من أراد أن يكون فيها سعيداً ، وبها رشيداً ،

فليعتبر ذلك في نفسه ، وليعمل على أن تكون منزلته عند ربه منزلة أفاضل عبادہ ، وأن يكون رأى الناس فيه وسطاً لا سوءاً ولا جمالاً كثيراً ، وأن يكون رأيه في نفسه سيئاً بحيث يحسب نفسه شر النفوس . بهذا تتم له الراحة فيرضى الله عنه ، ولا يسوؤه من الناس تقييح أمره ، ولا يخدعه منهم مدح وثناء ينفخان شذقيه ويوردانه مورد العطب ، ثم يعرف نقصان نفسه فيعمل على تحسينها ، ويدرك قبيح أمره فيجهد نفسه في تجميله ، فيبقى لنفسه مصلحاً ، ونحو العلى جاداً .

أيها الناس ! ألا بحسب امرئ من الشر أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحه ولا يقومه ، ألا إن هذا لشر عظيم ، ألا إن العاقل غير ذلك ، فانه إذا علم بفساد نفسه علم بصلاحها . أيها الناس ، أقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب لم يتب منه إلى ذنب يشرع فيه ، فيكون قد عانى من أمره السوء تلو السوء . قال رجل في المجلس : لقد زهدتنا وأحسننت تزهدتنا ، فهل لك أن تدلنا على معنى الزهد بأقصر عبارة نحفظها عنك ونتداولها نقلاً منك ؟ قال الخليل : الزهد ، هو أن لا تطلب الشيء المفقود حتى تفقد الشيء الموجود . وسأزيدكم رغبة فيه : انظروا لمن يجمع

المرء المال ولمن يخلفه ، إنما يجمعه لأحد ثلاثة ، كلهم أعداؤه ، إما لامراته التي توشك أن تتزوج فور وفاته ، فتلقى بأمواله بين يدي زوجها الجديد ، وإما لزوج ابنته الذي ينتظر موته اللحظة بعد اللحظة ، وإما لزوج ابنه التي تتحرق أسي على انتقال ماله إلى زوجها لتستبد فيه . فماذا يكون أمر العاقل الناصح لنفسه من هذا أبؤثر هؤلاء على نفسه ، فيخلف لهم ماله ، أم يوزعه على الفقراء والمساكين ، ويجعل توزيعه زاداً لآخرته ؟ .

بينما كان الخليل يتحدث إلى الناس بذلك ، وهم آذان واعية وعيون دامعة ، إذا بشاب قد أخذ الجهل من نعومة وجهه ، وعب الشقاء في ثوبه ، فبرمه وفتله على غير المألوف ، يقف على الحلقة متبرماً متجاهلاً . وما ينتهي الخليل من كلامه إلى الحد الذي سمعناه ، حتى يوقفه هذا الشاب الجاهل ببيت من الشعر ينشده رافعاً صوته مشيراً بيده يقول :

وغير تقى يأمّر الناس بالتقى

طبيداوى والطبيب مريب

ولم يدر هذا الجاهل المتعنت قدر الخليل ، ولا عرف أنه يفعل أكثر مما يقول ، فأراد أن يعكر عليه صفاء وعظه ، فنسبه إلى

القول بخلاف ما يفعل . والتفت الناس متعجبين مستهجنين ،
 وحصل لفظ في الحلقة ، وكاد بعض المتحمسين للخليل ينهضون
 إلى هذا السفية ليؤدبوه ، ولكن الخليل أشار إليهم بألا يفعلوا .
 وقال : إسمع قولي يا بني واحفظه ، واليك هو :

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي

ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

فسكت الشاب ، وعاد الخليل الى موعظته ، وقد أعطى
 الحاضرين درساً في الأناة والحلم والعقل ، لا يعادله تعليم بالكلام
 ولا وعظ بالحسنى .

الفصل التاسع عشر

أقام الخليل بالبصرة، فكان لا يخرج منها إلا لحج أو غزو.
 على أن كبار الأمراء والولاة مازالوا يدعونه، ويلتمسون حضوره
 إليهم؛ وهو يأبى ذلك عليهم، ولا يرغب فيهم. وكانت حاله
 تزداد سوءاً؛ فقد مرت أيام على البصرة سوداء، قل فيها التمر
 والمحصول، وضائق الحال بالخليل بما لا يحتمل! ولكنه صبر
 صبر الكرام، يتعزى بعلمه، ويتسلى ببازيه وصيده. وأقبل
 يوم، وإذا بشائعة تسرى في مدينة البصرة، يتناقلها الناس،
 ويضجون لها. قال قائل: لقد عزم الخليل أن يدع البصرة،
 ويرحل إلى خراسان؛ قال آخر: هذا ما لا أصدقه، فكيف
 يترك الخليل البصرة في شيخوخته، وقد أبى أن يغادرها في شبابه
 وكهولته. وإلى من يسير في خراسان، وقد رفض كل تقدمه من
 أمير وساطان. قال الآخر: يقولون إنه راحل إلى الليث بن المظفر
 ابن نصر بن سيار؛ وانقطع الكلام، فما كان أحد يعرف من

هو الليث هذا وما شأنه مع الخليل . وما مضت أيام حتى أذاع
 الخليل خبر سفره ، وذكر اليوم الذي سيخرج فيه . وحل اليوم
 الموعد ، واجتمع الناس لتشييع ابن البصرة وصاحب علمها
ورئيس شعرائها ورافع اسمها . وكان عدد المشيعين ثلاثة آلاف
رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوى أو لغوى أو إخبارى . وسار
الناس مع الخليل فى ركبته ، حتى بلغوا المربد ، فأوقفهم وخطب
فيهم يقول : يا أهل البصرة ! يعز على والله فراقكم ، فأنتم أهلى
وأصحابى وعشيرتى ، فيكم نشأت ، ومن لبانكم تغذيت ، أحببتكم
قبل أن تحبوني ، ثم أحببتموني فازددت بكم حباً ، دعيت
لفراقكم المرة بعد المرة ، فلم أعر الدعوة التفاتاً ، ومكثت بينكم
أزداد حباً فى بلدكم وارتباطاً بها ، وكانت هذه أيام سدّ فيها
باب المعاش علىّ ، وتضرر الأهل والولد ، وكثر اللوم ، فلم يثننى
عن عزى إلا دعوة من رجل صالح عالم ، قصد أن يوفرلى الراحة
فى الشيخوخة بأجر اتقاضاه على علمى ، فيسهل العيش على الأهل .
 والله يا أهل البصرة ، لو وجدت عندكم كل يوم كبلجة باقلاء ،
 ما فارقتكم ، فوداعاً أيها الأصحاب ، ودعاء لى . فضج الحاضرون
 بالدعاء له ، وبكى كثيرون على فراق هذا الرجل الذى ما رأوا

منه إلا الخير ، والذي أنس إليه الكبير والصغير ، وأحبه البؤساء
 والمساكين . وبكى صغار الطلاب أكثر من غيرهم ، فلن يجدوا
 في البصرة من يعلمهم مثله ، ومن يؤدبهم بأخلاقه ، ومن يعظمهم
 موعظته ، ثم سار ركب الخليل ، والناس يحبونونه ويقولون : في
 ذمة الله أبا عبد الرحمن سر مجدوداً ، ولي حفظك الله أنى حلات ،
 وحيث رحلت ، فلن تلد الأمهات مثلك . فسار حتى غاب ركبته
 عن الأبصار .

وعاد أهل البصرة إلى ديارهم متثقلين وقد فقدوا عزيزاً ،
 وودعوا غالياً ، وحرموا أنساً شديداً ومجالس عامرة . أما الخليل
 فكان يسير مبتعداً عن البصرة ، وعيناه مغرورتان بالدمع ، يودع
 صروحاً كانت له مرتعاً ، ولعلمه منشأ ؛ فيها أبدع ما أبدع ووضع
 من العلوم والمسائل ما وضع . وكان يتساءل : أيان تكون العودة إليها
 وهل يتهيأ له بسفره الراحة التي ينشدها ، ثم إذا تهيمات له ، فهل يتهيأ
 لفكره القريحة التي أعطاها في البصرة . هل أغلق باب تتبعاته فلن
 يخلق جديداً ؟ وكانت هذه الفكرة الأخيرة أبعد الأشياء خلفان
 قلبه وترقق دموعه ! فهو لا يستطيع أن يحيا بدون الإبداع . فإذا
 كانت غير أرض البصرة لا تصلح لإمداد قريحته بزاد الفكر

والإبداع ، فلن يسعد بل يشقى . دارت هذه الأفكار في مخيلته ،
 فاضطرب باله ، وصار يبحث عن دافع يدفعها به ، ويقصصها عنه ،
 فلم يجد إلا الفكر بابداع جديد يشرع فيه . وكأنه لم يشأ أن
 يترك البصرة إلا والأمل في الإبداع رفيقه ، فانطلق بالفكر ، وهو
 يقول : لقد حصرت الأنعام ومقاديرها وأنواعها ، فضممت كلاً
 إلى نوعه ، ثم حصرت أوزان الشعر العربي بتوفيق الله ، فمالى
 لا أفكر في حصر ألفاظ اللغة العربية ، بشكل علمي تام كامل ،
 لا يتأدر منها فيه لفظ ؛ وما بدت هذه الفكرة له حتى طرب
 لها ، وامتلات نفسه بهجة ، وفارقه اضطراب نفسه . وما فتئ
 طول الطريق يعمل فكره في هذا الاختراع العظيم ، حتى وافى
 خراسان ، وفي ذهنه منه بعض الخطوط .

تلقاه الليث بن المظفر بترحاب عظيم . وكان الليث من أحفاد
 نصر بن سيار ، ذلك الأمير الذي تنبأ بمصير الدولة الأموية فقال :
 أرى تحت الرماد وميض نار . ويوشك أن يكون لها ضرام
 فان النار بالعودين تزكى وإن الحرب مبدؤها كلام
 وكان الليث كاتباً بارعاً وأديباً حسناً ، ورث البلاغة والشرف
 من أهله ، وكان تقياً صالحاً حسن الطوية بارع الأخلاق ؛ أحبه

الخليل لما عرف عنه ، فرضى بصحبته ، ورجل إليها ، فوجد رجلاً
 يعد رفقة له شرفاً كبيراً وخيراً عميماً . وانقطعت عن الخليل
 همومه في المعيشة ، وألقى رزقاً كبيراً في خراسان ، وانطلق للفكر
 في مشروعه الجديد ، فوجد من حق صاحبه عليه أن يفتح به
 ويسره إليه ؛ وكان يعلم أن ذلك يفرحه ، فقال له يوماً : إني
 ما فتئت منذ خروجي من البصرة أفكر في أسلوب أحصر به
 كلام العرب جميعاً ، فلا تشذ كلمة عنه ، فقال الليث : إن هذا
 والله لعمل عظيم مفيد ؛ ولكن كيف يتهيأ لك حصر كل الألفاظ
 وهي مشتتة في معان مختلفة ، لا يجمعها جامع ، وهبك حصرت
 كل ما قالته العرب من ألفاظ في أسماء الشعر وأوصافه ، فمن أين
 لك أن تحصر الأدوات التي تستعمل له ، والأدوية التي تنفعه ،
 والأمراض التي تعلق به . قال الخليل : لا ، ليست تلك الطريق
 التي تحصر الألفاظ ، فإن ذهن الإنسان بل الناس جميعاً لا تطيق
 حصر الألفاظ التي استعملها العرب في مادة من المواد . وكل من
 عمل كتاباً في الشجر أو النبات أو الخمر أو السباع ، لم يأت
 إلا ببعض المسميات ، وغاب عنه منها عدد كبير . كلا ، إن يكون
 هذا الطريق صالحاً ، إنما أفكر بحصر تام كامل لكل ما يمكن أن

يتركب من ألفاظ العرب . فنظر الليث إليه متعجباً ، وهو على ثقة من أنه مقدم على إبداع لم يسبقه إليه أحد . وإذا بالخليل يوضح له فكره فيقول : يم تتألف الكلمة ؟ أليس من الحروف ، ثم أليس عدد الحروف محدوداً ؟ إنها في اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً ، إذا اجتمعت كونت الكلمة . ومن هنا يخطر على البال خاطر ، وهو ألا يمكن أن يعرف تراكيب كل حرف من الحروف مع الأخرى ، فالألف إذا اجتمعت مع الباء كونت أب ، وإذا اجتمعت مع التاء كونت أت ، ثم إذا ضربت هكذا ببقية الحروف أخرجت ألفاظاً عددها ثمان وعشرون لفظاً ، وكل لفظ من هذه يضرب بدوره مع حروف العربية ، فيخرج أبت ، ابث ، أبج وهلم جرا ، أفلا ترى أننا نستطيع أن نحصر الألفاظ التي أولها الألف بهذه الطريقة السهلة . ونعمل الأمر نفسه ببقية الحروف . لم يستطع الليث أن يفهم هذا الكلام على حقيقته ، فقد كان جديداً كل الجدة بالنسبة إلى ذلك العصر . على أن الخليل لم يقف عند هذا الإيضاح ، بل قال : ولسكني أبحث عن وجه أسهل من هذه الطريقة ، فأنا أرى بعد الحساب أنه يجب أن أكون على هذا الأسلوب (١٢٣٠٥٤١٢) لفظاً ، وهذا عمل

لا يحصره دفتر ولا كتاب ؛ وذلك ما يوقفى ويؤسفى . وأدرك
 الليث أن المشروع من الضخامة بحيث لا يقدم عليه امرؤ . ولكنه
 بعد الفكر ، وجده جليلا مفيداً ، يجب أن لا توقف عن القيام به
 صعوبة ، فاللغة العربية تظل بدونه عرضة للتشويه ، بحيث
 لا يعرف الأعاجم : أنطق العرب بلفظ مطلوب أم لم ينطقوا به .
 وإذا ادعى منهم مدع أنه مستعمل ، ولم يكن من كتاب يحصر
 الألفاظ المستعملة ، كان سبيل إقناعه صعباً . ثم من أين يتأتى
 للغة العرب رجل كالخليل يفكر بضبط ألفاظها وحصرها ؟ بقى
 الليث يناجى نفسه بتلك الأفكار ، فيزداد شغفاً بهذا العمل ،
 وأصبح فأسرع إلى الخليل ليستزيده من المشروع ، ولكن ماذا
 ألفى ؟ وجد الخليل مستلقياً على الفراش ، والحمى تسرى فى عروقه
 وهو يتقلب من الألم . فاضطرب الليث ، وبوغت بما لم يكن
 يتوقع . كانت الحمى آنذاك شديدة الوطأة ، لا سيما على شيخ
 كالخليل ، ليس له من الشباب ما يدفعها به . وفتح الخليل عينيه
 وقال : لقد أصبت بما ترى ، فما عدت أستطيع أن أفكر بإكمال
 العمل ، وقد تشتت فكركى ، واضطربت أعصابى ، وسأجمع
 شتات مخيلتى ، فأشرح لك الأمر شرحاً ثانياً حتى تستوعبه

فتقوم به عنى ، إذا أنا مت . قال الليث : كلا ، لن تموت
يا عزيزى ، وإن تصاب العربية بك ، فتفقدك فإنها أحوج
ما تكون إليك الساعة . قال الخليل : اسمع وقيد فى دفترك .
لن يحصر من ألفاظ العربية إلا مصادرها . أما ما تبقى فيخرج
من المصدر ، ويعول عليه فيه . والمصادر لا يمكن أن تتكون من
أكثر من خمسة حروف ، فالحروف لن يضرب بعضها ببعض
أكثر من خمس مرات ، وفى هذا العدد تخفيف للعمل عظيم .
قال ذلك ثم أطبق عينيه ، وأصابته رجفة ، فصار الليث يسعفه
بما يستطيع ، واستدعى الأطباء وتلفف لمعرفة نتيجة فحصهم له ،
فأخبروه أنهم لا يستطيعون معه شيئاً ، وأنه يجب أن يוכל إلى
العناية الربانية . وكان الليث متهيئاً منذ أمد بعيد للحجج فى
هذه السنة ، وقد أعد العدة لذلك ، وحل ميعاد السفر ، فصار
يتلظى حسرة على ما هو واقع بالخليل ، يدعو الله آناء الليل
وأطراف النهار أن ينقذه . ولم يستطع أن يؤخر فريضته ،
وقد عزم أمرها ، فوكل بالخليل الأطباء ، وسار فى طريق مكة ،
ونفسه قلقة مضطربة . وطال به السفر كثيراً ، وما رجع إلى
خراسان إلا بعد زمن طويل ؛ فما كاد يشاهد من أهلها أولهم ،

حتى سألته عن الخليل وعن صحته ، فأخبره بانقضاء الحمى وشفاء المريض ، ففرح الليث فرحاً شديداً ، وأمر بتفريق مال عظيم شكراً لله . وما وافى أبواب خراسان ، حتى ألقى الخليل بوجهه الموضاء ولحيته البيضاء وسيائه الذكيمة ، فحَفَّ إليه يعانقه ، فألقاه منشراح الصدر مبتهجاً . وما عتَمَّا أن وصلاً إلى الدار ، وأقبلت الوفود تحيي الليث ، وهو منتظر فراغها ليستفهم من الخليل عن مشروعه . ولما انفرد به طفق الخليل يقص عليه سير عمله ويقول : عاجلني الله بالشفاء ، فشكراً له وحمداً على آلائه ، ثم حبانى بما أحمده عليه أكثر من حمده على الصحة ، لقد فتح لى باب إنجاز الفكر فى الأمر الذى تحدثت إليك به قبل سفرك إلى الحج ، فوجدت أن ترتيب الحروف على طريقتنا التى ألفناها (ا ب ت ث) يجعل المشروع صعباً غاية الصعوبة ، وهدانى الله إلى طريقة فى النطق أرتب بها الحروف بحيث إذا ضرب بعضها ببعض ظهرت الألفاظ المستعملة جنباً إلى جنب ، واجتمعت الألفاظ المهملة بمكان متقارب . فأنت تعلم أن لكل حرف مكاناً فى الفم يحدث منه . فالعين والحاء والهاء والخاء والغين تخرج من الحلق ، وتحدث فيه ؛ والقاف والكاف تحدث فى اللهاة ، والفاء والباء

والميم تحدث في الشفة ، وهلم جرا . ولما كان حدوث الحروف أثر في إمكان تأليف لفظ مستعمل منها ، أو عدم إمكان ذلك . فأكثر الألفاظ المهمة ، إنما تتكون من حروف تحدث من مكان متقارب ، أو من الكلمات التي لا تدخلها الحروف الزوالية التي تحدث من الأسنان . فترتيب الحروف على سياق نطقها يقرب معرفة الماهل من المستعمل وفصلهما بعضهما عن بعض . ووجدت بهدى من الله أن هذه النتيجة تستدعي أن تؤخذ تراكيب الحروف لا بضرب كل حرف بالتتالي مع الحروف الأخرى ، بل بأخذ تراكيبه مع بقية الحروف دفعة واحدة ، فإذا جمعت مضاريب القاف مع العين استخرجنا منها قع وعق وهكذا . وسأشرع بالعمل عما قريب ، وأراني أصبت النهج الصالح ، وسأدعو الكتاب كتاب العين . قال الليث وهو طروب : إنك لأعجوبة الدهر ، فكيف تكتشف هذه الأفكار ، وهي خبأة ؛ وما عهدنا بالمبدعين والمخترعين إلا مبتدئون يوحون الفكرة ، حتى يحين الزمن ، فيأتي غيرهم فيتمها . أما أنت أيها الشيخ الجليل ، فقد حباك الله بما لم يرزق به غيرك ، حباك ببعد نظر وتببع للمسائل وتدقيق لأصولها واستخراج لنكتها ، فكأن الأشياء

تنطق لك ، وتهديك إلى سرها ، فمدك الله بالعمر ، وجزاك الجزاء
الأوفى على خدمتك للغة الشريفة . وعكف الخليل على اختراعه ،
واستخرج تراكيب الحروف على الوجه السابق ، وميز المهمل من
المستعمل منها ، ووضع مقدمة كتاب العين . وكان يشرك الليث
معه في عمله . ثم بدا له أن يجعل الكتاب تاماً ، بحيث لا يقتصر
فيه على حصر مفردات اللغة وتمييز مهملها من مستعملها ؛ بل
يتعمدها إلى وضع معنى كل لفظ ومشتقات كل مصدر . وسر
الليث بهذا الرأي سروراً عظيماً وقال : إن في هذا الغاية .
وما شيء يعادل تحديد معاني الألفاظ حتى لا يخرج عنها . فقال
الخليل : هو كما تقول ، وأرى رغبتك فيه وحسن ذوقك كفيلين
بإتمامه وتحقيقه ؛ فإليك كتاب العين ، فاشرع فيه منذ اليوم .
قال الليث : كيف أجرؤ على ذلك بوجودك ، وأنى حق لى بأن
أعمل فيه ، وأضيف من رأى ، وأنت صاحبه . كلا ، إن ذلك
خروج على نصاب الحق ، وعدول عن نهج الصواب . قال
الخليل : إني شخت يابنى ، ولم يعد عندى من الخيل والقوة
ما يدفعنى إلى عمل يقتضى عدداً كبيراً من السنين ، على أنى
مستعد لقراءة ما تحرر ، وللجواب عن كل سؤال يجول فى خاطرك .

أما حتى في الكتاب ، أفترى أن يكون سبباً لمنع إتمامه ، وقد ذكرت لك تقصيري في ذلك . قال الليث : سأشرع في إتمام الكتاب على نهجك الذي رسمته لي ، وستكون صاحبه أولاً وآخرأ ، وسأقحم فيه أقوالك وتقييماتك في اللغة التي جمعتها في دفاترك ، فهل تسمح لي بهذه الدفاتر ؟ قال : هي لك ، ولا تهيب السؤال مني ومن غيري ، فالعلم يا صاحبي ليس ملكاً لأحد ، ولا وفقاً على إنسان . وستجد عند فلان وفلان كثيراً من الأشياء التي أجهلها . فهيا يا صاح إلى عملك وفقك الله . انقطع الليث إلى هذا العمل ؛ وكان يقرأ ما يخرج منه على الخليل ، فيقره عليه ، وينبهه إلى ما يقتضى إصلاحه ، حتى مضى في الكتاب شوطاً .

قال الخليل لليث يوماً : لقد أولمتني يا بني من العناية وحسن الصحبة ما أنا شاكره لك وحافظه في طيات قلبي . قال الليث عفواً يا سيدي الشيخ : فإنك صاحب الفضل والإنعام ؛ فقد أجبتني إلى أمر لم تجب إليه من هم أكبر مني شأنًا ، وأعظم جاهًا وأوسع سلطانًا ، ولست إلا تلميذاً لك يرى من حقلك عليه ومن كامل سروره أن يوفر لك الراحة ما استطاع . ولسكني أراك تريد أن تنتهي من هذا الكلام إلى شيء آخر . قال

الخليل : أجل ، لقد قرب موعد خروج الحاج . وقد اشتقت إلى مناجاة الله عند كعبته ، ورجأى إليك أن تأمر أصحابك ليهيئوا لى سبيل الخروج مع من يخرج . نظر الليث إليه نظر المغمم الحزين ، فقد كان يحب أستاذة أكبر حب ، وقد تعشق منه أخلاقه الفاضلة ونفسه الطيبة ، ووجد عنده من الفوائد ما لم يلقه عند إنسان ، فقال وقد اضطرب صوته : لن أستطيع إلا أن أذعن لرغبتك ، لا سيما وقد قصدت أمراً مهيباً صالحاً . ولكن عدنى بأن تعود إلى خراسان بعد قضاء الحج . قال الخليل : سأملكك فى البصرة قليلا ، حتى إذا أسعفنى الله بقوة على العودة عدت إليك ، ورأيت ما تم بكتاب العين ، وإن لم يكن فى ذمة الله . وخرج الخليل بعد أيام وبلغ مكة ، فحج وعاد إلى البصرة فكان له أحسن استقبال ، وأجمل زينة ، وخطب الخطباء والشعراء فى استقباله ، وحضوا أهل البصرة على ألا يمكنوه من الخروج من البصرة ، فهو سيدها وشيخها ، ولا يجوز للسيد أن يغادر ملكه ويترك رعيته . والتأمت الحلقة فى اليوم الثانى ، واجتمع الطلاب ، وعاد الخليل إلى سابق عهده ، وهو أنيس بهذه البلدة التى هى سيدة الأدب بين البلاد .

الفصل العشرون

لغت نظر الخليل في حلقة شاب جميل نظيف أنيق ، كثر
ترداده إليها ، وصموته فيها ، وملازمته لها في أقرب مجلس منه ؛
فصار الخليل يمعن النظر فيه حيناً بعد حين ، فيراه منكباً على
تقعيد أقواله ، وكأنه يريد أن يلتهم علمه التهاماً ، فيسره ما يرى
منه ، وينتظر انتهاء الدرس ، فيراه وقد حمل ألواح ، وتفتح جانباً
يدارسها ويقلبها ؛ فيقعّد الخليل قريباً منه ، ويراقبه دون أن
يشعره بوجوده ؛ على أن هذا كان مطرقاً لا يلوى على شيء
إلا تلك الأوراق . نهض الخليل من مكانه ، واتجه إليه فجلس
بجذائه ، فالتفت هذا ، فوجد شيخه ، وقد قعد نحوه ؛ فاضطرب
بعض الشيء ، وغير من جلسته احتراماً للأستاذ ، فأومأ إليه
هذا بالألا يفعل ، وقال له : لقد استحسنيت عكوفك على الكتابة
في حلقتي ، وسرني منك حسن انتباهك إلى ما أقول ، وأراك
تختلف عن غيرك من الطلاب ، وأقدر أنك ناجح فيما قصدته ،

فمن أى قوم أنت؟ قال : من بنى الحارث بن كعب ومولاهم ،
ويلقبى الناس بسبويه قال : فما أقدمك بلدنا؟ قال : حبي للعلم
ورغبتي فى التحصيل قال : كم لك من الزمن فى البصرة؟ قال :
عدة أشهر . قال : وما الذى رغبت فى العريية؟ قال : إن لذلك
قصة ، وهو أنى شرعت فى طلب الحديث تبركا ، فحصل لى منه
بعض العلم ، ولما قدمت البصرة ، أدخلت على حماد بن سلمة بن
دينار ، وهو كما تعلم من شيوخ الحديث عندكم ، فأحسن لقائى ،
واختبر علمى ، وأراد تشجيعى ، فعهد لى بمرافقته إلى الدرس
وبالاستملاء عليه ؛ فصرت أرافقه ، وأقف بين يديه أستمع إلى
الأحاديث التى يذكرها فأعيدها على الحاضرين ، بصوت عال
يسمعهون ، فاستفيد معرفة من قربى إلى الشيخ ، وإلقائى بين
يديه ، وأفيد المستمعين بابلاغ كلامه إليهم . قال الخليل : وزبدة
القول أنك أصبحت مستمليه ، وهذا يدل على حسن ثقته بك
وحسن عنايته بأمرك ، فماذا حصل بعدها؟ قال : كنت ألقى بين
يديه يوما ، وإذا به يروى الحديث الآتى : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما أحد من أصحابى إلا من لو شئت لأخذت عنه علما ،
ليس أبا الدرداء ، فأعدت هذا الحديث على الحاضرين ، ولكنى

رفعت لفظ أب من قوله ليس أبا الدرداء ، فقلت ليس أبو الدرداء ، فاستوقفني الشيخ . وقال : لحنت ياسيديويه ، فأصابني من الخجل الشيء الكثير ، وانصب العرق من جبينى ، وكبر على أن أغلط بمحضر الشيوخ والفقهاء وطلاب العلم ، وأقررت بغلطى فقلت : لاجرم أنى غلطت ، ثم أنشأت أقول : ولكنى إن ألحن بعدها أبداً ، وسأطلب ذلك العلم الذى يعصمنى من اللحن ، ولن أعود إلى هذا المجلس إلا وقد أتقنته ، ثم استأذنت الشيخ ، وأعددت العدة لحضور دروسك ، فأنا منكب عليها مستفيد منها . قال الخليل : حلت أهلاً ووطئت سهلاً يا بنى ، وإنك لتراى جد مسرور بك ، ولك إذا شئت أن تحضر إلى دارى ، فإنى أعقد فيها دروساً للخاصة ومحاسن للاخوان ، وإنك لمنهم . فأقبل سيديويه على يدى الخليل يقبلهما ويشكره .

كثرت تردد سيديويه إلى مجلس الخليل ، وكان كلما قدم عليه ، قال له ما لم يقله لغيره فقال : « مرحباً بزائر لا يمل » وبش له وقال : هات ما عندك ، فينطلق سيديويه فى السؤال يتلو السؤال ، والخليل يبتسم لذلك ، ويجيب مسروراً ضاحكاً ، وسيديويه يكتب على ألواحہ وقد وجد ضالته . كانت هذه المجالس محببة إلى

الخليل ، فقد كان يجد فيها خزان علمه وهي تفتح فيستفاد منها ؛
 وكان يجد شخصاً عارفاً قد عمد إلى أئمن مافيهما ، يستعرضه ويعجب
 به ويحتليه ؛ وهذا مالم يصح له مع تلاميذه الآخرين . وكان
 بعضهم يستمع إلى الخليل وسيدويه يتكلمان ، فلا يفهمون قولهما
 بعده ، بل كان الأخفش يستوقف سيدويه في الطريق بعد
 خروجه من لدن الخليل ، فيستفهمه عما استعصى عليه فهمه في
 حديثهما . كان الخليل مبهجاً بتلميذه ؛ وكان أكثر فرحاً من
 أستاذه ، يأخذ الجواب وكأنه ألقى إليه كنز ، وكان يذهب إلى
 يونس - ثاني الخليل في البصرة - فيستعيذ هذا بالله منه حين
 يراه خوفاً من مسأله ، ويترقبها وجلاً ، فيلقها سيدويه معتزلاً ،
 فيتلعثم يونس بالجواب ، ولا يكاد ينتهي منه حتى يقول : ما قال
 صاحبك فيه ؟ يعني الخليل ، فيذكر له سيدويه جوابه ،
 فيستحسنه ويعتم لأنه لا يصل إلى درجته .

كان الأستاذ والتلميذ مبهجين من محبتهم ، معجبين كل
 منهما بصاحبه ، ينطلقان في ميدان المعرفة ، وقد فتح لهما بابه .
 أما يونس فكان مغتماً ، وأما تلاميذ الخليل الآخرون فكانوا
 غيورين منكدين . وصح لهم جميعاً سبيل إلى بعض التشفي ،

فانطلقوا الى إراقة دم غيظهم ، وذلك أن يونس جمع أعظم فكره
وأكبر عقله ، فوضع مسألة بسيطة في ظاهرها عويصة في طياتها ،
وألقاها إلى أصحابه في حلقتها ، وفند لهم أمرها ، وأشار إلى وجه
الصعوبة فيها ، فنقلها منهم إنسان ، وذهب بها إلى حلقة الخليل ،
وقال متواضعاً متظاهراً بحب اكتشاف المعرفة : ما قول سيدى
الشيخ بكذا ؟ قال ذلك ، ثم جلس على ركبتيه علامة الاحترام ؛
فأطرق الخليل يفكر ، وتلاميذه متململون ، يريد أحدهم لو فسخ
له الأستاذ السبيل إلى الجواب . أما الخليل فما زال مطرقاً ،
وصاحب يونس ينتظر سريع جوابه ووقوعه بالخطأ ، وكان يغير
من جلسته المرة بعد المرة ، مشيراً إلى طول إطراق الخليل ، وحاتاً
له على السرعة فى الجواب . ولما وجد أن الخليل استباح لنفسه
من الوقت ما يكفى لحل المسألة ، خشى أن يكون حلها ، فأظهر
كثرة انشغاله وفراغ وقته ؛ واستأذن وانسحب موهماً أنه أحرز
النصر . وما انطلق بعيداً ، حتى انفجر تلاميذ الخليل يقولون :
إن ما سألك ليس مما يحتاج إلى فكر ، ولو أشرت إلى أحدا
بالجواب لأسرع إليه . قال : فما الجواب عنكم ؟ قالوا : كذا ،
قال ، لو قلتم ذلك لزاد عليكم بسؤاله كذا فماذا يكون جوابكم ؟

قالوا ، كذا ، قال : فإنه يضيف أمراً جديداً لم تنتبهوا إليه فيقول له
فما يكون جوابكم ؟ قالوا : نقول كذا ، قال : فإن قال لكم كذا فم
تجيبون ؟ فنظروا في ذلك ، فوجدوا أنهم ضلوا السبيل بأجوبةهم ،
فسكتوا وانقطعوا ، فقال : لقد لمتوني على تأخري في الجواب ،
ولكني ما أجبته بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما على فيه من
الاعتراضات والمؤاخذات ، وقبيح بالجيب إذا ابتدأ بالجواب أن
يفكر بعد ذلك ، وليس معيباً في حقه أن يؤخر الجواب ، فليست
كل أمور العلم تجل في ساعتها ، وما العيب إلا أن يسرع
العالم في العلم ، ثم يتبين له خطأه فيه . ألا إنه إن اخطأ ، ظهر
خطأه ، وأضاع مكانته ، فزلته يضرب لها الناس بالطل ، كما
يضربون بالطل لأكبر الحوادث .

ذلك كان شأنه في النظر في علم النحو وغيره ، وكذلك وصل
فيه إلى أبعاد غاية ، واستخرج منه قواعد أصبحت أسساً له
منذ ذلك الحين . واثن سبقة علماء عديدون في ضبط النحو ،
فهو الذي حرر ما جمعوا ، وألف بين أشتات ذلك ، وأعطى
النحو صيغته النهائية . وكان أصحابه يرغبون إليه في أن يخرج لهم
كتاباً يجمع أصول النحو وقواعده فلا يفعل ؛ ولو فعل لما

ترك لغيره سبيلاً إلى الزيادة . وحق أن في أمره عجبا ، فقد كان
يحب فائدة المتأدين ، ولم يكن يبخل عليهم بشيء ، فما سر بخله
عليهم بكتاب يوفى لهم بالمطلوب ، وهم في أشد الحاجة إليه ؟ لعل
السبب أن عبقريته كانت تأبى عليه أن يضع كتاباً لا بد أن يحوى
أصولاً ليست من وضعه ، وتحليلاً هو لغيره ، وقياساً لا يده
فيه ؛ فلئن أخرج في النحو الشيء الكثير ، فهو إنما كان يكمل
بديتاً مرفوعاً ، وليس في طبعه أن يؤلف من عمل غيره كتاباً
يضيف إليه شيئاً من عمله ؛ وما هذا تكبر وخيلاء ، فما كان في
نفس الخليل ذلك ولكنه طبع قاهر . ولو أذعن لطلبات الطالبين
فوضع ذلك الكتاب ، لجح به قلمه ، فلم يرتض بأن ينسب الكتاب
إلى نفسه ترفعاً عن قول مالا إيداع فيه . كذلك كان الخليل
وكذلك شأن العباقرة .

ولما كثرت مسائل سيديويه — وكانت تأتي مرتبة متقنة
متصلة بما قبلها — شعر الخليل أن تلميذه قد اجتاز الشوط الأول
من النحو ، فلم يعد متعلماً ، بل أصبح عالماً ينظر إلى الجوهر
ويجتليّه ، ثم بدا للخليل اليوم بعد اليوم أن سيديويه قد
اجتاز مرحلة النظر في العلم إلى الوضع فيه والتأليف بين أشتاته ،

فقال له : لعلك يا عمرو تقصد إلى وضع كتاب في النحو ، فنعم
 الرأي رأيك ؛ إنك يا بني خير من يتصدى لذلك . قال سيبويه
 إنك بهذا تستحشني على عمل قد أقف لجلالته وعظمه . قال :
 كلا ، إن تقف وأنا بذلك ضمين ، فأرني يا بني ما تفعل ، وخذ
 مني ما أحببت ، وإنك بذلك لتلقى عن كتفي عبئاً ثقيلاً ؛ فقد
 كنت شفوفاً على المتعلمين الذين لا يجدون كتاباً يوفيههم حقهم
 من الطلب .

انكب سيبويه على كتابه ، فجمع أقوال أستاذه في النحو ،
 وأضاف إليها أقوال غيره ، ونظمها بعقد معرفته ، وأخرج
 مصنفاً دعاه هو بقران النحو ، ولكن الناس أبوا إلا أن يطلقوا
 عليه لفظ « الكتاب » خالصاً من الإضافة ، وكأنهم عنوا بذلك
 أنه الكتاب الذي ليس بعده كتاب . بلغ سيبويه بكتابه إلى
 ما كان يقصد الخليل منه ، بلغ إلى الإتيان أو الكمال ، لو أن
 الكمال يصح للإنسان ؛ وما كان ليبلغ كل ذلك لولا عون
 الخليل وأقواله ، ولولا روح الإتيان التي تعلمها منه . وهكذا
 أخرج الخليل بجمع سيبويه وصنعه كتاباً للنحو ، كما أخرج
 بجمع الليث معجماً للغة العربية ، وكان نصيب الابداع في المعجم

أوفرمنه في كتاب النحو ، فلم ير الليث غضاضة في نسبته إليه ،
ولو أن بعض العلماء أبوا أن يصدقوا ذلك لأغلاط وردت في المعجم
رأوا الخليل أجل من أن يزل فيها . وكان فكر سيبويه أكثر
ظهوراً في كتاب النحو من فكر الليث في المعجم ، ونسبة كتاب
النحو إلى الخليل أقل من أن توازي إبداع الخليل ، فلم ينسبه
إليه ، ولكنه ذكر فضله فيه .

الفصل الحادى والعشرون

دخل الخليل الأسواق على مجرى عادته ، والعام هو الخامس والسبعون بعد المائة من الهجرة ، فوجد جارية تتخاصم مع بقال وهى تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها بحساب بينهما ، لم تستطع التحقق منه إلا حين عادت إلى البيت ، وأخبرها سيدها بخطئه وتعالجا كثيراً ، والبقال يدعى أنه أعطاهما كل الحساب ، وأنها تجنى عليه بثمتهما الكاذبة . فأقبل الناس عليهما ليوقعوا بينهما . أما الخليل ، فانطلق به الفكر ، وشرده الخيال ، وراح يبحث عن نوع من الحساب سهل قريب سريع كان بإمكان هذه الجارية أن تعتمد إليه ، فلا تقع فى الإشكال الذى وقعت فيه . وقرب وقت الصلاة ، فاتجه الخليل إلى الجامع ، وهو لا يزال يفكر ، فدخله ورفع نعليه ، وتقدم فى الحرم إلى البقعة التى اعتاد أن يصلى عندها . وكان يستعرض بباله جدول الضرب ، وعليه

يرتكز حساب البيع والشراء ، وما كان بالرجل الذي يصعب عليه إيجاد حل لما فكر فيه . ولكنه ما سار بهيئاً ، وما أكمل فكره ، حتى اتجهت قدماه ، وهو غير شاعر ، الى سارية (عمود) كبيرة من سوارى المسجد ، قدت من الصوان القوى ، وما زال سائراً وهو غافل عنها ، وقد أخذ منه الفكر ، حتى اصطدمت رجلاه ببيوت من الخشب أحاطت بالسارية ، يستعملها الناس لوضع نعالهم ، فاختل توازنه ، واندفع أعلاه إلى الأمام متجهاً إلى السارية ، فاصطدم بها وأول ما اصطدم منه رأسه ، ذلك الرأس الذي كان يشع بالذكاء والإبداع . فوقع عليها وأحدث صوتاً شديداً ، فانقلب على ظهره ، وتدرج على الأرض مضرجاً بالدماء ، فتراكض الناس اليه ، فأنفوه مبتسماً ، وقد عرف أن في هذا خاتمته ، فنقلوه إلى بيته ، فبكى أهله وأصدقائه عليه ، فقال لهم : « لا تبكوا ! فوالله ما فعلت فعلاً أخاف على نفسي منه وما كان لي فضل فكر صرفته إلى جهة وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمداً قط ،

وأرجو أن يغفر الله لي التأول . قال ذلك واستكان قليلاً ثم
إذا هو يصرخ من شدة الألم الذي أصابه . كان منبع هذا الألم
رأسه ، ذلك الرأس الذي حوى عقلاً لا مثيل له ، ذلك الرأس
الذي ضم نبوغاً عربياً فائقاً ، ذلك الرأس الذي اكتشف علوماً
ومعارف أبت أن تظهر لغيره ، أو يظهر بعضها لسواه . تلقى
الخليل الضربة القاضية في أعز قطعة من جسمه ، وكان قد
بسط عقله وأعمل ذكاه . كان قد استخرج مواهبه من مكانها
وأطلق سراحها لتبحث له عما يريح الإنسان المسكين الغافل ،
وإذا بها تصطدم بالصخر ، فتتنادى إلى مكانها ، وترتد إلى عقالها
فتجده مكسراً دامياً ، فتتخبط فيه تخبط الأعشى في الليل
وتسيل عنده دماء حارة ، وهي تصرخ مفجوعة : إنها لا تريد
أن تفارق هذا الرأس العزيز ، وقد أحبتة خير الحب . إنها
لا ترضى بتركه ، وقد استخدمها لأحسن غاية . إنها تأبى أن
تدعه ، وقد جال بها في خفايا الأشياء . إنها لا تقوى أن تتباعد عنه
وقد كان خير ملجأ لها . يا للصخر ! إنه لا يفهم ، ولو فهم لما قبل

في حال أن يضرب هذه الرأس النابغة . يا للصخر ! إنه لا يعقل
ولو عقل لأبى أن يلمس إلا في رفق ودعة تلك الرأس التي
ما كانت تفكر إلا بخير الناس . الا فما أحق أن يكتب على
هذه السارية :

هنا أصيب العقل وتضرج الفكر ورقد الابداع .

اقرأ

أول سلسلة من الكتب الشهرية
تبت رسالة الفكر بين الجمهور
وتشجعه على المطالعة المهيبة

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهي
ذخر ثقافي قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون في كل
منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

آراء بعض كبار الأدباء :

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في
تغذية الأدب والثقافة » . . .
- « زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه
الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .
- « هذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة وترقية
الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

اقرا

المؤلفات التي ظهرت في سنتها الرابعة (١٩٤٦)

٣٨	العلم والحياة	بقلم الدكتور على مصطفى مشرفة باشا
٣٩	المدينة المسحورة	بقلم الأستاذ سعيد قطب
٤٠	مهد العرب	بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام بك
٤١	الفيثامينات	بقلم الدكتورين
		محمد رشاد الطوبى ومصطفى عبدالعزيز
٤٢	قصوة عبقرى	بقلم الأستاذ يوسف العش



يظهر في أول يونيو سنة ١٩٤٦

الكتاب رقم ٤٣ وعنوانه

عنتر بن شداد

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

التمن بالنسخة

٦٠	غرشا	٥٠	ملجا	سوريا ولبنان	مصر
٦٠	فلسا	٥٠	ملجا	العراق	السودان
				فلسطين وشرق الأردن	٦٠ ملا

مؤلفات السنة الأولى (١٩٤٣)

- | | | |
|----|---------------------------|------------------------------------|
| ١ | أحلام شهرزاد | (قصة) طه حسين |
| ٢ | شاعر الغزل | (أدب) عباس محمود العقاد |
| ٣ | منذ المريح | (سياسة) فؤاد صروف |
| ٤ | عود على بدء | (قصة) إبراهيم عبد القادر المازني |
| ٥ | دستويفسكي | (ترجمة) حسن محمود |
| ٦ | شاعر ملك | (قصة) علي الجارم |
| ٧ | الشاعر الرقيم | (ترجمة) عبد الرحمن صدق |
| ٨ | مذكرات دجاجة | (اجتماع) إسحق موسى الحسيني |
| ٩ | المذاهب السياسية المعاصرة | (سياسة) علي أدم |
| ١٠ | شفاء النفس | (اجتماع) يوسف مراد |
| ١١ | السكون العجيب | (علوم) قدرى حافظ طوقان |
| ١٢ | سسنوحى | (قصة) محمد عوض محمد |

مؤلفات السنة الثانية (١٩٤٤)

١٣	جميل بئينة	(أدب) عباس محمود العقاد
١٤	من يوميات فتاة عصرية (قصة)	حسين شوقي
١٥	بايرون	(ترجمة) أمينة السعيد
١٦	دمشق	(تاريخ) محمد كرد علي
١٧	شكسبير	(أدب) محمد فريد أبو حديد زكي نجيب محمود، احمد خاكي
١٨	قنديل أم هاشم	(قصة) يحيى حقي
١٩	سيدة القصور	(») علي الجارم بك
٢٠	الملك فاروق	(اجتماع) كريم ثابت
٢١	أبو نواس	(ترجمة) عبد الحليم عباس
٢٢	جحا في جانبولاد	(قصة) محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبي العلاء	(أدب) طه حسين بك
٢٤	لاقوازييه	(ترجمة) عبد الحميد يونس عبد العزيز أمين
٢٥	قصة البنسلين	(علوم) مصطفى عبد العزيز

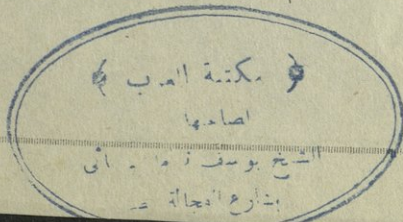
مؤلفات السنة الثالثة (١٩٤٥)

العشاق الثلاثة	٢٦	(أدب)	زكى مبارك
بفداد	٢٧	(تاريخ)	طه الراوى
بوشكين	٢٨	(ترجمة)	نجاتي صدق
النار والنور	٢٩	(علوم)	أمين ابراهيم كحيل
قطر الندى	٣٠	(قصة)	محمد سعيد العريان
الغزالي	٣١	(ترجمة)	طه عبد الباقي سرور
الشيخ قرير العين	٣٢	(قصة)	كرم ملحم كرم
في بيتي	٣٣	(أدب)	عباس محمود العقاد
فارس بنى حمدان	٣٤	(قصة)	على الجارم بك
جوته	٣٥	(ترجمة)	صديق شيبوب
مع الحيات	٣٦	(علوم)	حسين فرج زين الدين
العناصر النفسية	٣٧	(اجتماع)	شفيق جبرى
في سياسة العرب			



مطبوعات حديثة

بقلم الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق	محمد عبده	٢٠
بقلم معالي الدكتور سليمان عزمى باشا	على هامش الطب	٥٠
بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة	الغربال	٢٥
نظم الأستاذ محمد الأسمر	تفريعات الصباح	٣٠
بقلم البكباشى رفعت الجوهري	سيوة	٢٠
بقلم المهندس فؤاد فرج	القاهرة جزء ثالث	٥٠
بقلم الأستاذ توفيق الحكيم	عودة الروح - أول	٢٠
بقلم الدكتور يوسف الأعسر	مبادئ علم الأجنة	٤٠



مكتبة الأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلاني

مجموعة نفيسة نادرة تحتوي على أكثر
من أربعين كتاباً مصوراً ، مطبوعة
طبعاً أنيقاً ، شهد لها رجال التربية والتعليم
بأنها « تحبب القراءة إلى كل ناشئ » .

ملف من الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

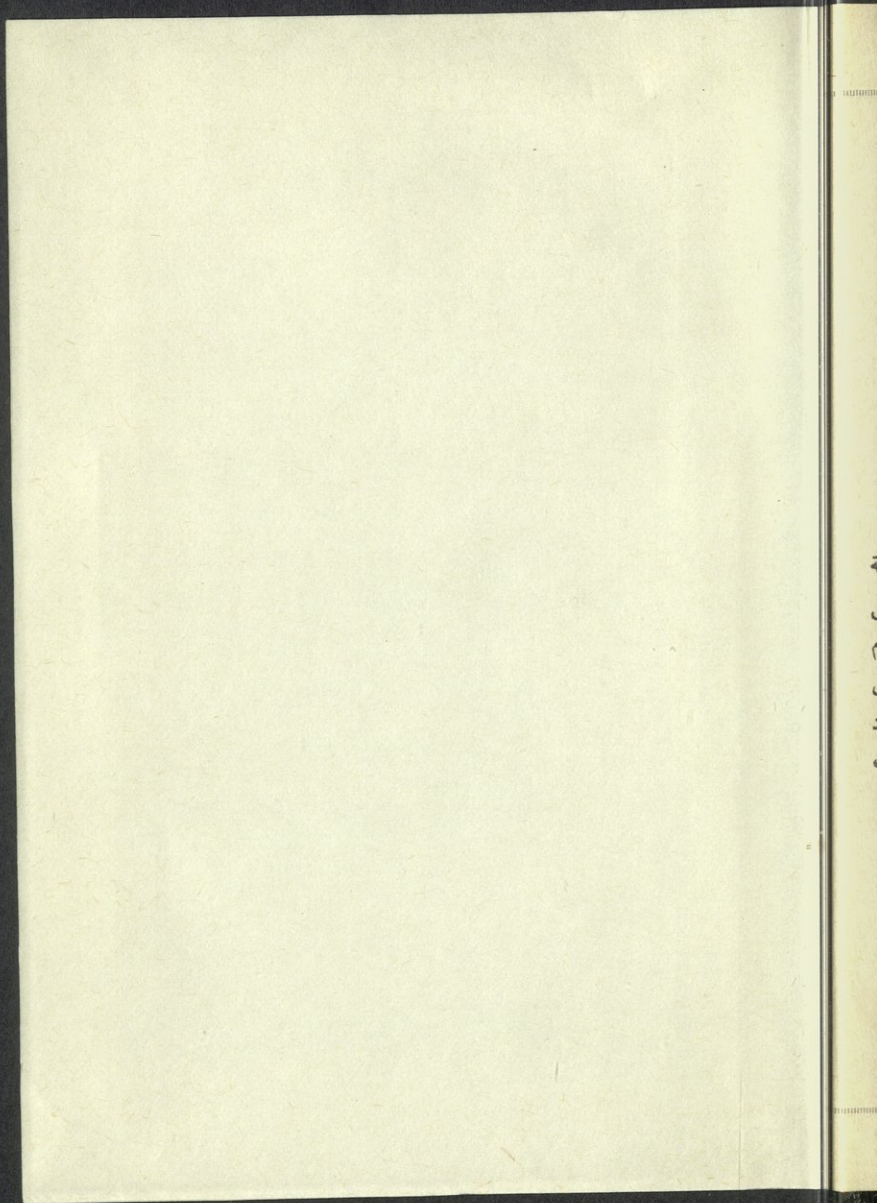


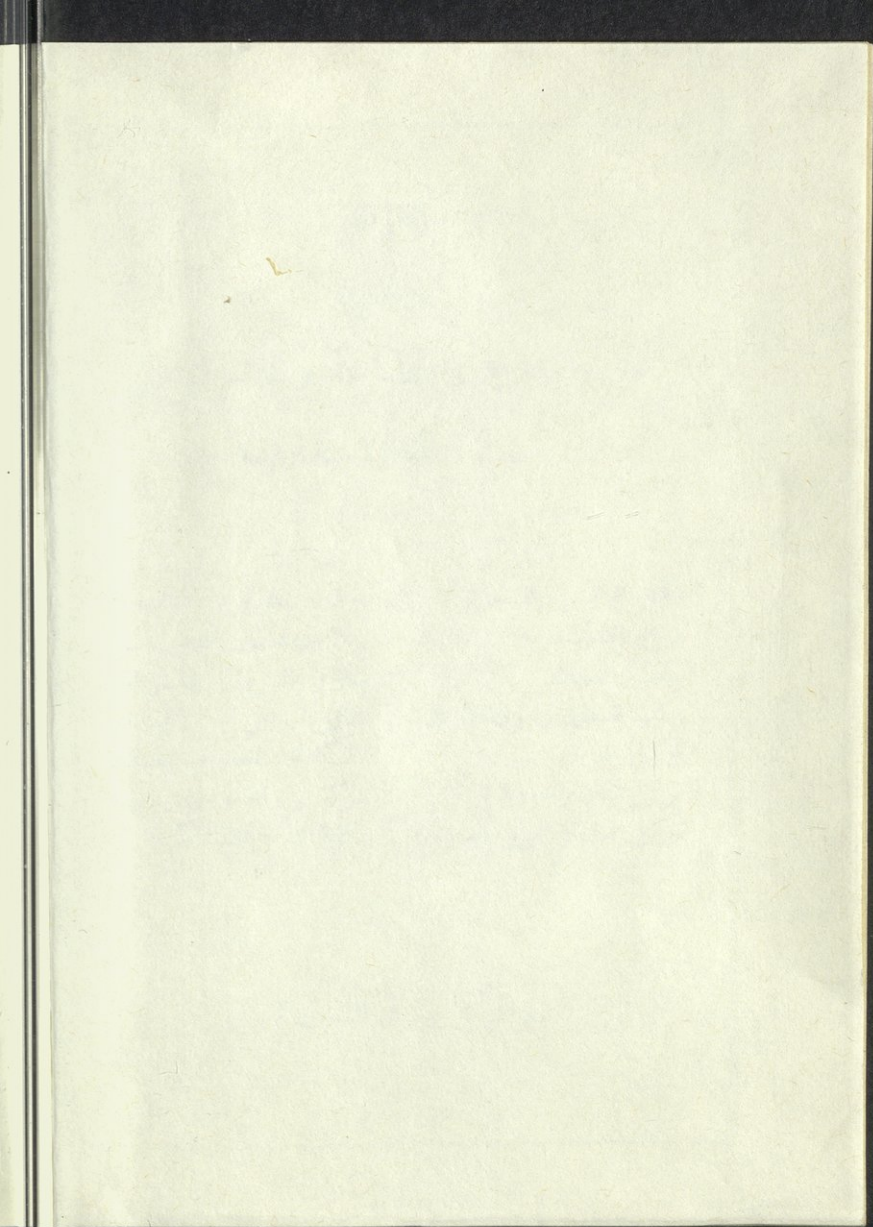
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

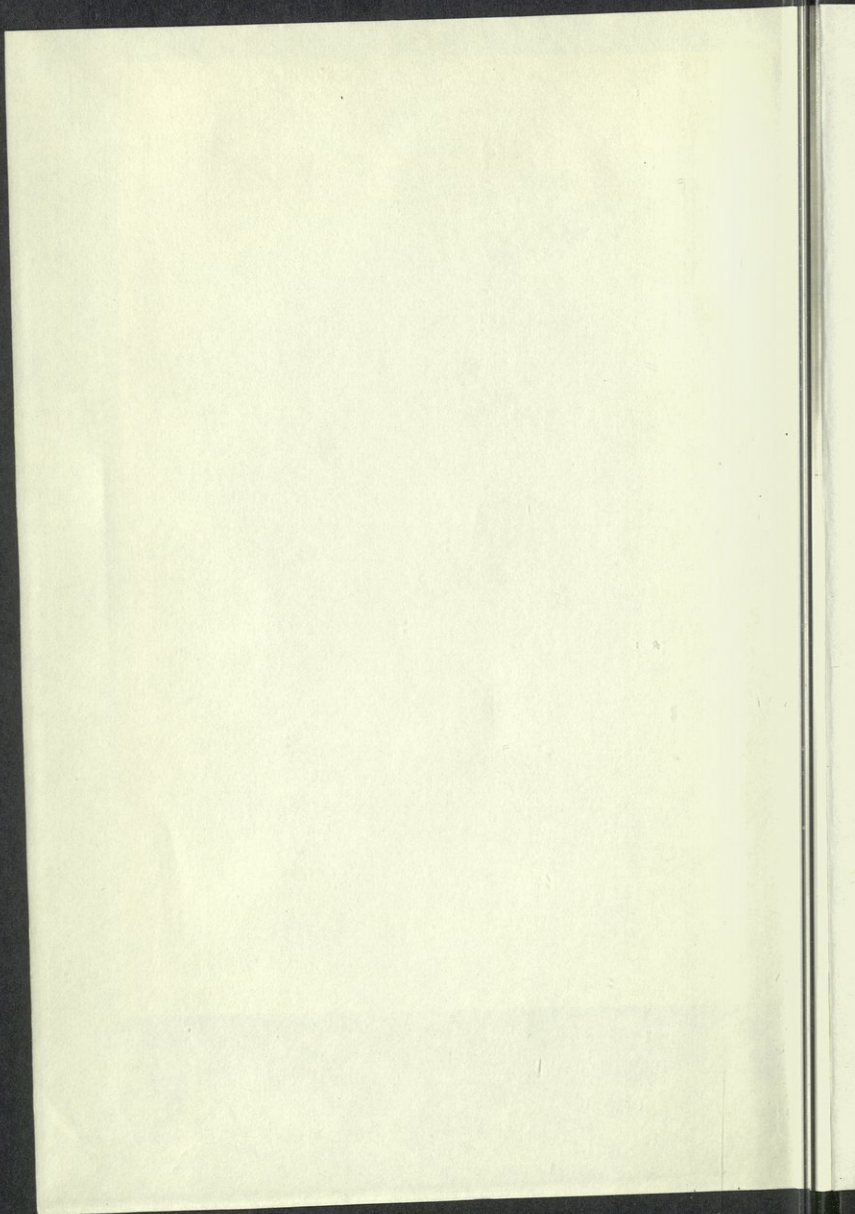
أسست في القاهرة سنة ١٨٩٠

- المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على
مكتب السودان : شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس
توكيل العراق : المكتبة العصرية ببغداد
توكيل لبنان وسوريا : شركة فرج الله وحتي ببيروت
توكيل المملكة العربية السعودية : مكتبة الثقافة بمكة المكرمة

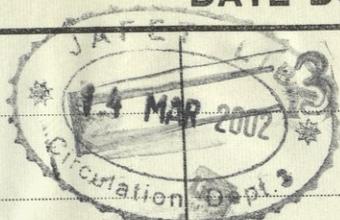
أقدم دار عربية في الشرق العربى







DATE DUE



A. U.

العيسى، يوسف
قصّة عبقري
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037735

492.7
F211asA
c.1